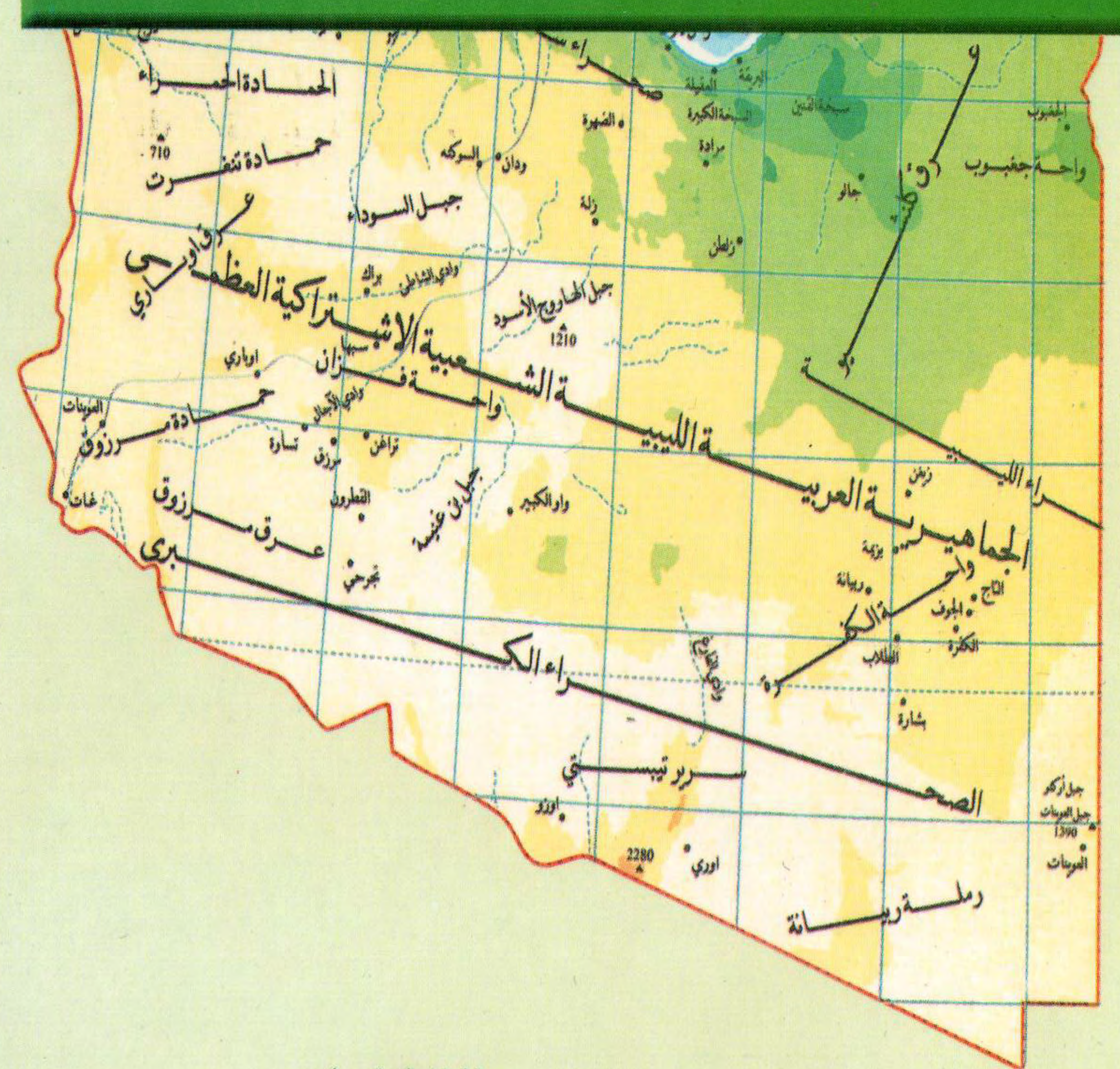

حكايات من الواقع

# مراحيل العطش في ليبيا




د. محمد سعيد القشاط





# مراحيل العطش في ليبيا

## حكايات من الواقع

تأليف

د. محمد سعيد القشاط

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

2008م - 1428هـ


الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

---

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

# الإهداء

إلى أرواح شهداء هذه المراحيل

أهدي هذا الجهد المتواضع

د. محمد سعيد القشاط

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

**الصحراء هذا البساطُ السرمديُّ الواسع. هذا المحيط من الرمال والجبال والأودية. هذا الذي ينبسط على امتداد ملايين الكيلومترات المربَّعة.**

هذا البساط الذي تلتحفُ به ليبيا من الجنوب وتَتَّخذه ملجأ ومأوى لمقاتليها ومجاهديها وقوادها كلّما داهم العدو الشمال. وحاول السيطرة على هذا الوطن الأبيِّ الشامخ.

وبقدر ما كانت الصحراء درعاً واقياً لأهلها وقاطنيها وجُوَّابها وعابريها والمحتمين بها بقدر ما تحتوي على المخاطر والمآسي والموت الزُّؤام. فسكونها بقدر ما هو ملهمٌ للشعراء وعشاق السكينة بقدر ما هو قاتل.

فطرقها التي تطمسها الزعازع والأنواء سرعان ما تصبح طرقاً للمجهول. وآبارها القليلة الناضبة الشحيحة ترى أملاً تطوى له المسافات وتعلَّق عليه الآمال. وكثيراً ما تخيب عندما تكون الرمال قد سبقت وُرَّادها وطَمَسَتْ معالمَها

فتصبح مقابر دون قبور. وتتناثر حولها عظام العطاش الذين غرَّهم الأمل. وسبقتهم الأقدار لتقرير مصيرهم المجهول الذي رمت بهم إليه مجاهلُ الصحراء.

وعبر آلاف السنين وقوافل الأهل ومراحيلهم تطوي مفازاتِ الصحراء باتجاه إفريقيا ذاهبة وآيبة. دون كلل ولا ملل. محمَّلة بما يخفُّ ويغلى ناشرة الرخاءَ والازدهار لمواقع رحيلها ومواقع وصولها.

وككلِّ الرحلات الصَّعبة. يصل النهايةَ الأقوى عزماً. والأصلبُ عوداً، والأكثر إصراراً على الحياة.

وفي الطريق يتساقط الكثيرون كللاً، ومللاً، وعطشاً ومرضاً. ولكن القوافل تسير، وتظل تسير راسمة للأجيال مسارب لا تندثر. وطرقاً لا تخفى إلاّ لمن جهل الصَّحراء.

**وعند الغزو الإيطالي المَقِيتِ قاتل المجاهدون الليبيون قتال الأبطال.** وأوقعوا في العدوِّ خسائر فادحة. ومزَّقوا جيوشه أيَّ مُمَزَّق. ودحروه في هذه الصحراء، وأرجعوه للساحل مُشَتَّتَ الأوصال تبطش به الصحراء عطشاً، وجوعاً وحفاً.

خمس وعشرون سنة يقاتلون دون هوادة، عدوًّا غادراً حاقداً متسلِّحاً بأقسى أسلحة العصر. ويقاتلون أيضاً الجوع، والعطش، والمرض، والتعب والحفا، والعُرْي.

خمس وعشرون سنة لا نصير لهم غير الله. ولا مساعد لهم غير الله. يؤمُّون هذه الصحراء كلما اشتدّ بهم الحال، وكلما ضغط العدو على جموعهم. فيتخذون من رمالها درعاً ومن جبالها كنًّا، ومن أوديتها ملاذاً، ومن حشائشها قوتاً لهم ولحيواناتهم. إنها الأم التي ما بخلت على أولادها بكلِّ ما هو مفيد.

غير أن كما يقال **(دوام الحال من المحال)** فما إن اندفعت قوات العدو بطائراتها ودباباتها وأسلحتها الفتاكة داخل الوطن، حتى بدأ الرجال العظام والذين يرفضون أن يحنوا الجباه لغير الله في الرحيل بعائلاتهم وبقايا حيواناتهم متغلغلين في مجاهل الصحراء التي لم يخبروها في الدول المجاورة.

وهنا كَشَّرت الصحراء عن أنيابها، وبرز العطش القاتل يبطش بالأولاد والنساء والرِّجال، دون رحمة ودون تمييز. وسقط الرجال الأبطال صرعى دون أن يجدوا من يدفنهم. ودون أن يجدوا من يلقِّنهم الشهادة. فوق أديم الصحراء الكالح. وتسفح وجوههم سموم (القبليِّ) اللافح وصَهَدُ الشمس المحرقة.

تلك المراحيل التي رأيت أن أخصِّص لها هذا السفر متحدِّثاً عن بعضها وما قاسته. مسجلاً ذكريات بعض شهود

تلك المآسي المؤلمة والنهايات المحزنة لرجال سَجَّلوا تاريخ هذا الوطن بمدادٍ من ذهب جعل الأعداء يعترفون به قبل الأصدقاء.

فمئات العائلات ابتلعتهم صحراء الجزائر وهم يتحسَّسُونَ طرق النجاة. ومثلها ابتلعتهم صحراء مصر والسُّودان. وتشاد. والنيجر. في هجرة غير منظمة وغير مسيطرٍ عليها. تسلَّلت الأسر والعائلات متوجهة للمجهول. راكبة زعازع الأخطار واضعين قبلتهم عدم الاستسلام. وعدم الاستيطان تحت سيطرة العدو. متراجعين للصحراء منتظرين الفرصة لاقتحامها من جديد باتجاه الوطن.

**هذه القصص أخذتها من أفواه شهودها. وكانت فصلاً في كتاب (الصحراء تشتعل).**

ورأيت أن أتوسع فيها وأُفردَ لها كتاباً خاصًّا بها أقدمه للقراء علّهم يطَّلعون على معاناة هذا الشعب العظيم الشامخ.

في بعض هذه الأحداث يستجيب الله لاستغاثتهم فينزل الغيثَ ويحيي به أسراً على شفا الموت.

وفي بعضها الآخر كان العطش نقطة النهاية لعمر مليء بالأحداث والأخطار والبطولات.

وإذا المنيةُ أنْشَبَتْ أظفارَها
ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

هذا؛ وأدعو لشهداء هذه المراحيل الرحمةَ والمغفرة، ولأحفادهمُ العزَّةَ والكرامةَ والنَّصر.

**د. محمد سعيد القشاط**



# العودة من الهروج

استطاع المجاهدون في أواخر عام 1914م من السيطرة على الجنوب، وطرد فلول الطليان من فزان بعد معارك الفاتية. وسبها. وأوباري وجبل الحساونة وغيرها.

وكان قبل هذا الوقت تجمع المجاهدون بعائلاتهم في منطقة زله. والهروج. متخذين منها مراكز انطلاق لمهاجمة الإيطاليين في الجنوب.

وما إن اندحر الإيطاليون من فزان حتى بدأت العائلات والأسر تعود إلى مواقعها القديمة في أوطانها.

ولم تكن مراحيل العودة هي الأخرى مريحة أو مرفهة، فلقد لاقت في هذه الصحراء الكثيرَ من صنوف التعب والعطش والجوع.

رصد مركز جهاد الليبيين[1] قصة من آلاف القصص

---

(1) مركز جهاد الليبيين متخصص بالحركات الجهادية والعسكرية للشعب الليبي مركزه - طرابلس -.

لمواطن يدعى محمد إبراهيم الأمين العزومي. الذي استقرَّ بحيواناته مع أقربائه في منطقة الهروج. وعندما اطمأنَّ إلى نزوح الطليان عن المنطقة قرر العودة إلى مناطق سكناه السابقة وشرع في الرحيل دون أن يكون على دراية بالصحراء. ومواقع المياه.

**يقول محمد الأمين:**

«بعد خروج الطليان من سبها، وانسحابهم من فزان، كانت نجوعنا بالقرب من الهروج، وقضينا فترة الربيع والصيف، ولكن عند الشتاء كز الوطن فارتحلنا بإبلنا وأغنامنا إلى السودة حيث وجدناها (ربيعاً كبيراً) فربعت الحيوانات، وعند نهاية الربيع أخذنا مجموعة من الإبل، ورجعنا إلى نجعنا لترحيله ليلحق بالحيوانات. كان معي بشير بن نصر ومحمد بن نصر والعجيلي وواحد أو اثنان مشاشية.

رجعنا حتى وصلنا إلى نجعنا، وكنا لا نعرف الأرض ولا نخبرها، وارتحلنا بأسرنا حتى وصلنا (الفقهاء) حيث شربنا وحملنا ماءنا وارتحلنا ثانية ودخلنا أرضاً منبسطة (سريراً) لم نعد نخبر الأرض وبقينا اثني عشر يوماً نسير في طريق متعرِّج وندور لا نعرف الاتجاه، وكانت بداية الصيف والحرارة على أشدِّها.

وأخيراً أثَّر فينا العطش فعقلنا الإبل وبنينا بيتين جمعنا

فيهما الناس، وكانوا ثمانين نفساً كباراً وصغاراً، وكنَّا في هذا المنتجع ثمانية رجال.

أخذ أحد المشاشية ومحمد بن نصر القرَب وحملوها على جمل، ووجدوا مسارب قديمة متجهة إلى الجنوب ساروا معها ليجلبوا الماء.

ذهبت المجموعة عند الصباح وبقينا في المنتجع وعند الليل مات لنا شابٌّ من العطش. وهنا قال لي بشير: يا محمد، هَيَّا قم واحمل على جملك القرَب وأسير أنا وإياك واحمل على جملي القرَب، إما أن نجد الماء ونحيي هذه العائلات أو نموت بعيداً عن النساء والأطفال.

أخذ كلٌّ منَّا جملاً وحَمَّلَهُ بالقرَب وسرنا دون هداية، سرنا طوال الليل باتجاه الجنوب (ونحن لا نعرف وجهتنا) نجد مرة مسارب قديمة، ومرة تندثرُ فلا نجدها.

عند الصباح كنا أحياناً نجد بعر الإبل في تلك المسارب واستمررنا إلى منتصف النهار، حيث وجدنا (رجماً) من الحجارة به قليل من الظلّ، فبرك جمل بشير قُدَّامي، وسقط هو في الشمس، يردد الشهادة. وصلته، وبرك جملي بجانب جمله. وضعت جردي على الجملين ليكون لي قليلٌ من الظلّ، وأدخلت رأسي فيه بين الجمال.

وبشير لم يستطع الدنوّ من الظلّ فاستمرّ في مكانه

يتشهد، ولم يكلم أحدنا الآخر. وعند العصر قام بشير وهو يقول: محمد شن حالك؟

قلت له: حالي لا بأس عطشان بُكل.

قال لي: خطر عليَّ فكر.

قلت له: ما هو الفكر؟

قال: الفكر هيا نذبح أحد الجملين نشربوا دمه وفرثه، والآخر نركب عليه نحن الاثنان. إن كان وصلنا الماء وعشنا يبقى الجمل الحيّ بيناتنا وإن كان متنا الله يرحمنا.

قلت له: باهي[1] هيا، أيُّ الجملين نذبح؟

قال لي: أنت أيهما تقترح؟

قلت: نذبح جملك أنت لأنَّ جملي أنا صغير (ثني).

قال: لا إن جملك صغير وعندما يشم الدم يجفل ويهرب ولا نستطيع القبض عليه، وجملي أنا فحل وهادئ فالأحسن أن نذبح جملك وكان عشنا هذا الجمل يسوي الثمن أكثر.

قلت له: نحن أبناء عم وما بيننا حساب.

وقمنا إلى الجمل حيث عقلناه بأربعة (عقالات) من قوائمه الأربع، ومسكت فم القربة ونحر هو الجمل،

---

(1) باهي.. معناها موافق.

ووضعت فم القربة في فم الجرح بحيث جمعت كل الدم فامتلأت إلى نهايتها ووضعناها في الظل لتبرد وأخرجنا الكرشة وثقبناها بالسكين وجمعنا ماءها الذي كنا نعصره بمنديل ونشرب فيبست شفاهنا وكان مذاق الفرث مرًّا لا يطاق.

بعد المغرب بقليل شرعنا في شرب الدم حيث وجدناه مستساغ الطعم أحسن من الفرث.

بعد العشاء بقليل امتطينا ذلك الجمل وحملنا بقية ما حصلنا عليه من الماء (الدم)، وسرنا حيث تسير تلك المسارب القديمة، واستمررنا طوال الليل، وأشرقت الشمس. وعند منتصف النهار وصلنا إلى بلدة (تمسة)، ووجدنا رجلاً يخرج الماء من العين والجابية ملأى فسقطنا فيها بملابسنا وبدأنا نشرب ونتقيأ إلى أن رجعت لنا أرواحنا واسترحنا.

ووصل إلينا (عقاب القايلة) بعد الظهيرة الجماعة الذين ذهبوا قبلنا ليجلبوا الماء ولم ينحروا جملاً، وكانوا في أشد العطش.. ارتوينا وملأنا القرب ووضعنا على كل جمل ثماني قرب ورجعنا إلى المنتجع.

مررنا على جملنا المذبوح وأخذنا حويته ووضعناها على الجمل ولم نلتفت إلى اللحم بالرغم من جوعنا.

استمررنا طوال تلك العشية وطوال الليل، ووصلنا إلى النجع عند منتصف النهار من اليوم الثاني.

وجدنا الناس جميعهم مغمى عليهم، وأحد البيوت والإبل معقولة تتقافز بعقالها.

بَرَّكنا الجمل وأخذنا قصعة ملأناها بالماء، وكلفتني الجماعة لأنني أصغرهم بالدخول إلى الخيام لسقي الناس الأحياء وإلباس العراة منهم وستر الميت.

دخلت إلى الخيام، وكنت أفتش بين الناس، هذا ميت. أقول لهم فلان مات، فلانة ها هي ميتة إلى أن أحصيت لهم جملة المتوفين ثلاثة عشر شخصاً من الأطفال والنساء ومن بينهم أربعة رجال.

وبدأ بشير يطوف على الأحياء ويسقيهم رويداً رويداً إلى أن استعادوا وعيهم.

وبدأنا نحن في حفر القبور للأموات دون غسلهم ودون تكفينهم واستغرق منا هذا العمل كل تلك العشية إلى وقت المغرب.

ارتحلنا من ذلك الموقع المشؤوم متوجهين إلى الغرب. وفي آخر الليل افتقدنا ثلاث فتيات كنَّ يَسِرْنَ بجانب المرحول. بحثنا عنهنَّ ولم نجدهنَّ. وسرنا حيث وصلنا في يوم الغد إلى بَلْدَتَيْ (الزيغن) و(سمنو) وأخبرنا

الناس فركبوا الخيول وبحثوا عنهنَّ ولم يجدوا منهنَّ واحدة، وضِعْنَ إلى الأبد»[1].

(1) هذه الرواية في موسوعة روايات الجهاد، جمع علي البوصيري. كتبتها هنا بتصرف ووضعتها في هذا الأسلوب بدلاً من الأسلوب الشعبي. وقال الراوي: إن الفتيات أسماؤهن عيشة المثنانية ورجعة بنت الكيلاني ورقية بنت عرفة.

# الهجرة إلى المجهول

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ووصول حزب الفاشست إلى الحكم في إيطاليا. وتفرغ إيطاليا لقتال الليبيين. حاول المجاهدون الليبيون صدَّ الاندفاع الإيطالي نحو احتلال ليبيا التي عجزت جنودها عن احتلالها طيلة الإحدى عشرة سنة الماضية 1911-1922م.

احتمى الليبيون بالصحراء. وتجمعت آلاف الأسر في منطقة فزان البعيدة. وتشكل الرجال في مجموعات قتالية تحت قياداتها المحلِّيَّة. تقاتل العدوّ. وتتصدَّى لزحفه ثماني سنوات أخرى. إلى أن تغلَّبت القوة والكثرة. في عام 1930 وصل الإيطاليون إلى فزان. بعد معارك ضارية أبلى فيها المجاهدون البلاء الحسن.

هنا ارتحلت الأسر والعائلات صَوْبَ البلدان المجاورة. كل فريق باتجاه أقرب الأماكن إليه.

مئات العائلات من مختلف القبائل ارتحلت صَوْبَ

الجزائر رفقة المجاهد عبد النبي بالخير. والمجاهد محمد ابن حسن المشاي. وهي من أكبر المجموعات المهاجرة: أوقفها الفرنسيون في (وادي تيهاوت) قرب جانت في الجنوب الشرقيّ الجزائريّ عدة أشهر بعد أن استلموا أسلحتهم. وذلك في انتظار الإذن لهؤلاء المهاجرين بالدخول إلى الجزائر أو تونس.

# الارتحال المميت

ما إن أذن الفرنسيون لهؤلاء المهاجرين بالارتحال من وادي تيهاوت حيث قضوا عدة أشهر يأكلون أوراق الأشجار وأعشاب الأرض. وذلك لتشغيلهم في شركات استخراج الفوسفات الفرنسية في تونس. نظير أجور زهيدة ودون ضمان على حياتهم.

ما إن حصلوا على الإذن. حتى شرعت العائلات في الرحيل باتجاه الشمال. في صحراء قاحلة وجبال من الرمال تتيه فيها الطرق، ويلعب في ملاعبها الموت والدمار والفناء.

وفي لقاء لي مع الحاج علي الجدي الورفللي رحمه الله[1].

(1) الحاج على الجدي رحمه الله. التقيت به في سبها عام 1963 وكان قاضياً هناك، ثم التقيت به في طرابلس عام 1974 بمنزلي وحدثني أحاديث الهجرة. وتوفي رحمه الله في أواخر الثمانينيات ودفن بمقبرة الهاني.

والذي كان ضمن هذه المراحيل **حدثني حديث الرحلة. قال:**

«ارتحلت الناس في مجموعات من مكان نزولنا ذلك متوجهين شمالاً للوصول إلى تونس حيث اتفقت معنا شركات فرنسية لتشغيل الناس في (المينا) استخراج الفوسفات.. كنا في مرحول كبير مع مجموعات من المشاشية وأولاد بوسيف. وصلنا الماء حيث ملأنا أوعيتنا وسقينا حيواناتنا، وبتنا ليلة هناك، وكان علينا في الغد أن ندخل بساطاً من السرير تحفُّ به الرمال من جهتين، تسير فيه المراحيل لمدة أربعة أيام لا يوجد بها الماء. لم يكن معنا خبير، ولكننا كنا نتبع آثار المراحيل التي سبقتنا.

بعد مسير أربعة أيام كاملة تجد فتحة صغيرة في الرمال لجهة اليمين على المسافر أن يدخل منها نحو الرمل ليقطعه يميناً. وإذا لم ينتبه إلى تلك الفتحة يبتلعه السرير ولا يعود أبداً من ذلك الفجّ.

وكان النجع الذي يتبعنا من الخلف هو نجع سيدي النعّاس الفقهي[1]. أما نجوع أخرى، فإنها تتقدمنا بمسافة بين كل نجع ونجع مسافة يوم أو أقل أو أكثر.

---

(1) الشيخ النعّاس الفقهي. من علماء ورفلة. ومن كبار المجاهدين في المنطقة. هاجر إلى تونس. ثم عاد إلى أرض الوطن بعد خروج الطليان من ليبيا، وتوفي ببلده بني وليد.

في اليوم الثالث لحقت بنا (ورّادة)[1] من نجع سيدي النعاس تسعى للوصول إلى الماء قبل النجع لتجلب لهم الماء لأن الناس بدأت تعطش ويقلُّ ماؤها.

كانت (الورّادة) ستة عشر جملاً، كلُّ أسرة أرسلت بعيراً لجلب الماء على ظهره القرَب.

**سألتهم**: يا جماعة! سيدي النعاس هل أرسل بعيراً معكم؟

**أجابوني**:

لقد سمعنا أن سيدي النعاس لم يعرف الفتحة في الرمال ودخل في الفجّ، وأرسلنا وراءهم سليمان الذئب ليرجعهم إلى الطريق الصواب.

سار سليمان الذئب على ظهر جمل يتبع سيدي النعاس ذلك اليوم والليلة التي تليه ولم يلحق به إلا في اليوم الثاني حيث أرجعه ولكن بقيت مسافة بينه وبين النجع الآخر تقدّر بيوم وليلة.

سرنا معاً نحن وتلك (الورّادة) التي نضب ماؤها وكذلك ماؤنا، وبتنا ليلة معاً. عند الصباح بزغت الشمس وكأنها جَمْرَة. والقبلي يشوي الوجوه، ولم يبق لنا من الماء إلا ما يكفي شربة واحدة لرجل واحد، ونحن أكثر من أربعين شخصاً.

---

(1) الورّادة: مجموعة القافلة التي مهمتها إحضار الماء أي ترد البئر.

قلنا نجلس ونعدُّ بهذه الشربة القليلة كأساً من الشاي، لأن الشاي كما يقولون يصبِّر الإنسان على العطش. اقتسمنا تلك الشربة كأساً كأساً من الشاي، وقمنا إلى إبلنا لنحثها على السير. ولكننا لم نستطع لشدة الحرارة فاتفقنا على أن ننصب ما نستظلّ به وننام إلى آخر النهار.

ولكن الورّادة لم يوافقونا، **لأنهم قالوا:** لقد تركنا الناس وراءنا من غير ماء، وأي ساعة نغيبها عنهم تقضي عليهم.

ركبوا جمالهم وساروا، أما نحن فقد بقينا نتقي الحر بدون نوم لأن العطشان لا ينام. كنا نتقلَّب على الرمال الحارَّة. وكان القبليُّ يشوي الوجوه ويثير الأتربة في العيون ويكاد أن يسدّ الرؤية.

بعد الظهر بقليل أمرت جماعتي بالسير، قائلاً لهم: «إذا بقينا هنا فإننا سنموت جميعاً، ولن ننفع الأماميين ولا الخلفيين، وسيضيع الناس جميعاً».

عندما قطعنا مسافة في الصحراء وجدنا نجعاً لشخص ورفلليّ يسمى (قجدور) حوالي ثلاثين شخصاً قضى عليهم العطش تحت البيوت المهدمة، والأثاث المتبعثر والإبل بأحمالها التي تساقطت على رقابها أو بطونها. والرجال والنساء والأطفال جميعهم لا حراك بهم. بعضهم حفر حفرة وأدخل رأسه فيها، وبعضهم سقط خارج الخيام، وبعضهم

كان منكفئاً على وجهه، وجميعهم كالحطب سواداً ميتين وإبلهم ميتة.

سرنا قليلاً وإذا بنجع آخر كسابقه، ولكن لا تزال بقية من حياة في الناس بالرغم من عدم وعيهم. كان معنا أحد الرفاق يخبئ قربة ماء في رحيله، ولا يريد إخراجها إلا عند الضرورة القصوى.

كان المنظر مؤثراً، جمعنا أولئك الرجال والنساء والأطفال في خيمة. وبدأنا نرشهم بالماء قليلاً قليلاً. إن جسم الإنسان كالحديد المحمَّى، يتصاعد الماء بخاراً من جسمه الكالح حتى حجب الرؤية داخل الخيمة، ثم أخذنا قدراً ووضعنا فيه التمر وسكبنا فوقه الماء وحركناه حتى أصبح (هريسة) وصرنا نسكب في حلق كل إنسان قليلاً من ذلك السائل إلى أن عادوا جميعاً إلى وعيهم، وأركبناهم معنا على إبلهم وسرنا. لقد نضب الماء حقيقة من الجميع.

عند منتصف الليل وجدنا نجعاً للمشاشة سبق لهم أن وردوا وأحضروا الماء، وكان معنا في الرحلة مجموعة من المشاشية. اتجهوا نحو البيوت وشربوا ولم يحضروا لنا ماء. لمناهم على ذلك وقلنا: إذا ذهبوا ليشربوا مرة أخرى فسنترك لهم إبلهم.. وفعلاً تركنا لهم أباعرهم وسرنا.

عند منتصف الليل الأخير وجدنا (ورّادة) تحمل الماء من العين عائدة إلى أحد المنتجعات. طلبنا منهم قربة ماء

لنشرب، رفضوا إعطاءنا الماء قائلين: إننا تركنا عائلات كثيرة وراءنا يهلكها العطش، وهذا الماء لا يكفيها وأنتم قريبون من الماء.

أمرت أصحابي بالنزول والهجوم على القرب وتمزيقها بالسكاكين والشرب منها.

شرعنا في النزول. قال أحدهم: (تربحوا ما تمسوش القرب. أعطونا قربة نملأها لكم).

شربنا وجلسنا نعد قليلاً من الزميتة لأننا منذ يومين لم نذق شيئاً لخوفنا من نفاد الماء، وشربنا الشاي وقمنا نواصل السير، وعند بزوغ الشمس وصلنا العين.

تقع تلك العين في منخفض من الأرض عمقها حوالي (500) متر مليئة بالماء، وكلما حفرت حفرة يخرج منها الماء ويحيط بها القصب.

شربنا وشربت الإبل وملأنا أوعيتنا، ووجدنا أمامنا (الورّادة) التي فارقتنا بالأمس باتجاه العين.

**قلت لهم**: يا جماعة سيدي النعّاس لم يرسل بعيراً لجلب الماء وهذه ناقتي خذوها وسأضع عليها أربع قِرَب واحملوها لسيدي النعّاس، وافقوا على ذلك وكان أحدهم ابن أخته.

مجموعة من أصحاب (الورادة) رفضوا العودة وبقوا

عند الماء. وقالوا: والله لم نعد نستطيع الحركة من جوار الماء.

وبقية المجموعة أخذت الماء وعادت إلى النجع كما حملت معها ناقتي تلك، ولكنهم ما إن وجدوا بداية النجع حتى وجدوه في حالة سيئة من العطش أفرغوا أغلب ما أحضروه من الماء ولم يبق شيء كثير لبقية النجع في الخلف. لم يعد الناس في المنتجعات منتظمين، فلا أحد يعرف أحداً ولا أحد يسير مع أحد من شدة العطش وكلهم مختلطون.

وهم يسقون الناس ويسعفونهم، وقد فرغ أغلب القرب. وصل إليهم شخص مرّ على نجع سيدي النعاس يركب مهريًّا قال لهم:

«يا جماعة إن كان يهمكم حال سيدي النعّاس إنه في الرمق الأخير هو ونجعه. وقد نزل بجوار (قطيعة قجدور) وبنى البيوت. وسمعت الأنين داخل البيوت. ومات بعض الأطفال واعترضني يمسك طفلاً في حالة أقرب إلى اليأس وهو يقول لي:

«أعندك قليل من الماء نحيي هذا الوليد؟» فأجبته والله ما عندي أي شيء من الماء، إلا إذا أردت نحجم لك الجمل. قال لا ننحر نياقاً ونقطر الماء من كروشها. ويا جماعة إن كان بكم أحد يحس سيدي النعاس عاجلوا بإنقاذه».

رجعت المجموعة التي فرغت مياهها في أول النجع إلى العين في اليوم الثاني، وأخبروني عن سيدي النعاس. ولم يستطيعوا الوصول إليه لأن الماء الذي عندهم نضب في بداية النجوع. وقد أرسلوا إليه تلك الناقة وحمولتها لا تكفي إرواء النجع.

وكنا قد أرسلنا إبلنا إلى المرعى، إذ لا يوجد أي شيء بجانب العين تأكله. وهناك مجموعة من الشعانبة مهمتهم رعي الإبل، حيث يأخذونها إلى المراعي البعيدة.

بدأت أبحث عن إبل استأجرها أو استلفها، وهناك نجع للمشاشية نزل قريباً من العين ولا تزال إبلهم معهم. قصدتهم وطلبت منهم أباعر لأحمل عليها الماء لنجع سيدي النعاس. **قالوا لي**: ومن أخبرك إن سيدي النعاس عطشان؟ قلت لهم: أخبرنا شخص من عكارة لحق بنا على مهرية اليوم. ألححت عليهم وقلت لهم: إذا تؤجروا لي الإبل باهي وإذا تريدون أن تبيعوا لي باهي. المهم أن تعطوني ناقتين أو ثلاث لأنقذ بهم النجع. اتفقنا على أن يؤجرونا ناقتين بثمانين مجيديًّا، ونزلت أنا وابن عمي العين وبدأنا نملأ القرب.

لحق بنا أحدهم وقال: (يا جماعة ما صارش من التأجير) ارتبكت وتألمت وأنا أستجديهم قائلاً: يا جماعة

بعوا لي الناقة بثمن ناقتين أو أعطوني الناقة وأعطيكم بدلها ناقتين عند وصول إبلي.

باءت جميع محاولاتي بالفشل ورفضوا.

كيف العمل؟

إن الله لا يترك المستضعفين وهو القدير على إغاثتهم.

عندما كنا في فزان سمعنا أن أحد أفراد قبيلة الفقهاء من ورزيك ضاعت له ناقة قبل رحيلنا بسنتين، ونسيت جماعة الفقهاء الناقة وقد ضاعت آلاف الإبل غيرها في السرير.

افترشت (كليما) واستلقيت على وجهي وأنا في أشد الحيرة والاضطراب والحرارة مشتعلة ليلاً ونهاراً.

في آخر الليل وردت العين ناقة تمشي يسوقها رجل فاستيقظت منزعجاً وصحت في وجه الرجل قائلاً: (يا كلب الكلاب الناقة التي تركت أهلها ماتوا أين الجمل الذي معها..؟).

شهرت مسدسي في وجهه وأنا متيقن من أن الناقة هي ناقة محمد بن حسن الفقهي، بالرغم من شدة الظلام. قال الرجل الذي لا أعرفه من أين:

«أنا لم أجد معها جملاً». وترك الناقة وذهب في طريقه. لم أستطع أن أعرف كيف تم ذلك، غير أنني وبدون وعي نهرت الرجل وأنا نصف نائم والظلمة شديدة، كأنني

أرى الناقة وسمتها في ذلك الظلام، وهي ناقة محمد بن حسن.

أخذت الناقة وناديت سليمان وأخذت القرَب حيث ملأتها ووضعتها على الناقة وسقتها أمامي. **قال سليمان:**

- دعني أذهب أنا لأسوق الناقة.

أمرته بالبقاء في الخيمة، وسقت الناقة وأنا في قميص وسروال بدون جرد، ألفّ على رأسي عمامة، حافي القدمين.

لحق سليمان بالناقة وعلق المخلاة على القتب وقد وضع فيها قليلاً من التمر (عجين) والمسدس.

كانت الناقة قوية، وسرت أتبعها. وبعد قليل أشرقت الشمس فكأنها فوهة فرن من الحرارة.

سرت وراء الناقة إلى الضحى، وكان الرمل بارداً في البداية، ثم بدأ يسخن ثم أصبح كالملال. فصرت أمزق عمامتي وألف قطعاً منها على قدمي وأسير وما إن أمشي قليلاً حتى تتقطع تلك القطع وتبقى قدماي عاريتين، فأزيد وأمزق حتى لم يبق منها شيء. وبدأت الشمس تحرق الأرض، والقبليّ يشوي الوجوه وكنت لا أشرب إلا إذا رأيت الأرض صفراء تتراقص في عينيَّ، عندما أخشى الضياع فأشرب لأقوى به على السير.

بدأت أمزق كمَّيْ قميصي وألفُّ بهما قدمي، ثم بدأت أمزق أطراف القميص من تحت حتى أوصلته إلى ما فوق الركبتين.

ولكنني تعبت والرمضاء لا تُحْتَمَل، ركبت على الناقة، فإذا بالسمة التي عليها ليست سمة محمد بن حسن الفقهي الذي يضع على رقبة الإبل (محمد علي) وإذا السمة التي عليها سمة (المقارحة).

وقلت في نفسي إذا صادفني أحد من المقارحة سيتهمني بسرقة الناقة ويأخذها مني ويضيع سيدي النعاس وأضيع أنا.

تعبت الناقة وبركت ولم تستطع السير من التعب وشدة الحرارة.

نزلت عن ظهرها، وأنزلت إحدى القِرَب وردمتها في الرمال على أمل أن أجدها عند العودة، وقد لا أجدها. المهم التخفيف عن الناقة وأن أصل ببعض الماء خير من أن لا أصل بلا ماء.

وجدت خياماً لأولاد بوسيف لشخص منهم يدعى صوم تمام كانوا يتلمظون من العطش. اعترضني وهو يحمل بين يديه طفلاً قال لي:

انتظرني واسق لي هذا الوليد.

قلت له:

إنني ذاهب إلى أناس يكادون يموتون من العطش.

ولما عرفته أوقفت الناقة وقدم لي صحاناً ملأته له ماءً فسقى الطفل، ولم يشرب هو مع أنه لا يقدر على السير من شدة العطش ورفض أن أملأ له الصحان ثانية لما علم بذهابي لسيدي النعاس. **قائلاً:**

«لا تسأل عن أحد. أدرك سيدي النعاس هو الأول».

قبل غروب الشمس بقليل، وبجوار كثيب من الرمل يرتفع إلى عنان السماء، وجدت خيام سيدي النعاس، ووجدت الناقة التي أرسلتها لهم منذ يومين قد وصلتهم بتلك القرَب فأنعشت بعض العطاش الذين كانوا على حافة الموت كما وجدتهم قد نحروا نياقاً يشربون فرثها، وقد مات من النجع خمسة أولاد.

بدأت أصبّ الماء لسيدي النعّاس وهو يسقي الأولاد والنساء والضعفاء ولم يشرب من الماء شيئاً وكاد أن يغمى عليه من شدة العطش. **قلت له:**

يا سيدي النعّاس اشرب أنت أولاً، وبعد ذلك سنسقي الآخرين.

**أجابني:**

لا. هناك وليد ابحث معي عنه سأسقيه أولاً.

بدأت أبحث عن الوليد، إلى أن وجدته داخل أضلاع ناقة ميتة نحروها لشرب فرثها.

أخرجته منها فاقداً وعيه وسقيته إلى أن تعافى. وبدأت في حمل الدبش على الإبل. وكانت الإبل على ضعف بحيث لا تستطيع حمل أثقالها وأركبنا عليها بعض الأولاد وبقي طفل صغير يدعى عبد السلام الشاملي لم أجد بعيراً أركبه عليه فكنت أحمله على ظهري مرة وأنزله مرة أخرى. وقد ماتت أخت سيدي النعاس من العطش ذلك اليوم، وأركبنا خادمة له وهي مكسورة الكبد من العطش، ولم تثبت على البعير، وفي إحدى المرات سقطت فوجدناها ميتة.

قال سيدي النعّاس:

لا بد من دفنها.

نحن في أقصى غاية التعب والإنهاك والعطش أيضاً وأخيه [illegible] أصرَّ على دفنها.

هيلنا التراب عليها واستمرينا في المسير. عند آخر الليل وصلت إلى مكان القرَبة التي أخفيتها وكأن رجلاً يشير لي إلى مكانها. ورغم الظلام الحالك وقفت فوق المكان الذي ردمت فيه القربة وأخرجتها ووضعتها على الجمل.

مشينا طوال الليل وبزغت الشمس حارَّة قاتلة، وواصلنا السير وكمل الماء ونحن نواصل السير، وعند الظهر وصلنا إلى مكان العين.

نزل سيدي النعاس على العين، وبقي هناك في انتظار القوافل التي أرسلت إلى (ورقلة) لجلب التموين، وكان يقودها عبد النبي بالخير الذي طلب منه حاكم ورقلة أن يذهب إلى الجزائر لمقابلة المقيم الفرنسي فيها. فاعتذر بحجة أنه بعد إيصال التموين إلى العائلات سيرجع إلى مقابلة المقيم.

عندما وصلت إلينا القافلة القادمة من ورقلة على تلك العين واستقبلنا المجاهد عبد النبي بالخير ومن معه. بقي معنا يوم، وأثناء حديثه مع سيدي النعّاس **قال**:

اسمعوا. عبد الهادي زرقون وعلي شاهين سيذهبان إلى ورقلة ومنها إلى تونس، وأنا سأرجع إلى النجوع، والفرنسيون يطلبون مني الذهاب إلى الجزائر لمقابلة المقيم. ولكن «إذ كانت هجرتي صحيحة وخالصة لله إن شاء الله ما عاد نتقابل أنا وفرنساوي».

الجماعة بعضهم رقّ عزمه وبكى، وبعضهم تحامل، وعبد الهادي زرقون **قال له**:

إن الفرنسيين يقابلوننا من أجلك مقابلة الباشوات. قال عبد النبي: «اسمع الواحد عندنا يكون حاكم فوق منه ما عنداش اختيار في نفسه وأنا متعلم ما يحكم في حد..»

ونزلت النجوع التي فيها عبد النبي في (الزاوية الكحلاء) وبدأ الفرنسيون يطلبون إليهم في ورقلة. وكلما

أرسلوا سيارة له يمتنع عن القدوم وفي كل مرة يعتذر بحجة جديدة. ولنترك الحديث لابنه يوسف عبد النبي بالخير الذي بقي مع العائلات المتبقية في (الزاوية الكحلاء) بوادي الناقة يقول

.. أرسل والدي أخي مصباح ومفتاح بشابش الى ورقلة لجلب التموين وبيع بعض الإبل هناك وشراء ما يلزم العائلة، وكانت النجوع تتقدم نحو تونس. وقد عين أبي على كل فريق شيخاً من المجاهدين ينظم شؤونهم مع المرسيين وكان بينهم عبد الهادي زرقون وعلي شاهين وسيدي النعاس وغيرهم.

**وقرر الرحيل باتجاه ورقلة.**

حضر إليه ثلاثة من حملة البريد من التوارق وكان معهم فرنسي متجهين إلى تمنراست.. طلبوا منه انتظارهم لحين عودتهم ليخبروا بالنجع الطريق. واستلف نعجة من العائلة وعشاهم بها.

صادف أن قدم في تلك الأثناء أحد مواطني ورفللة من تونس يدعى محمد الأصقع قريرة المزوغي. كان يشتغل في تونس وأحضر معه بعض اللوازم لأسرته ويريد حملها معه الى تونس. قال قريرة لعبد النبي بالخير:

لا تنتظر التوارق، أنا أخبر بكم، أنا أعرف المنطقة (بالحطة).. تحملت المجموعة ثلاثاً وثلاثين عائلة من

الصيعان أقرباء عبد النبي: أخوه المبروك وأسرته وأبناء إخوته وبنات إخوته وأخواته.

ومع المرحول عائلة قريرة وعائلة مسعود عوير ومجموعة من العائلات الأخرى.

وكان عبد النبي يحمل من الماء حمولة أربعة عشر جملاً تكفي تلك المجموعة مدة شهر بالاقتصاد.

دخلت المجموعة بحر الرمال الشاسع الذي يقع غربي بئر (القاسي) بمسافة بعيدة وهم في اتجاه بئر هناك في منتصف الطريق تسمى بئر التوارق، وأثناء مسيرهم وجدوا مخيماً لقبيلة ورفللة (الدروع) يفتك به العطش. الرجال والنساء والأطفال مبعثرون في خيام تهدم جلها من شدة الرياح، وكان ذلك في اليوم السابع لرحيل عبد النبي.

أناخ إبله وطلب من الجميع أن يسرعوا لنجدة الناس وإسعافهم وبدأ يسقي العطاش ويعيد لهم وعيهم وكان الأولاد يناولونه الماء حتى وصل العبد بآخر (براد) من الماء. **قال لعبد النبي:**

سيدي هذا ما بقي من الماء، خذ اشرب.

**قال عبد النبي للعبد:**

اشرب أنت واسْقِ اللافي (ابن أخيه).

وارتحلوا طالبين البئر التي أخبرهم الخبير أنها لم تعد بعيدة عنهم.

عند اقترابهم من المنطقة التي توجد فيها البئر.
قال الخبير محمد الأصقع وهو يفرك جبهته:

لقد تهنا عن الطريق لم نعد نعرف إن كانت البئر بقيت إلى الخلف أو لا تزال إلى الأمام.

أوقف عبد النبي جواده والتفت إلى الخبير **قائلاً له**:

ليتك لم تقل ذلك وبقيت ساكتاً.

أمر الجميع بالنزول، فنصبوا الخيام واحتموا بالظلّ من الحر اللاّفح.

أمرهم بأن يطلقوا سراح الإبل العطاش، فإنها ستوصلهم إلى الماء، لأنها في المرة السابقة عند رجوعها من الرحلة شربت من بئر (القاسي).

سارت الإبل باتجاه بئر القاسي التي تبعد عن المكان حوالي مائة كيلومتر، وارتحلت بعض العائلات مع الإبل ورفضت البقاء، وركب هو على جواده يبحث عن الماء في كل الاتجاهات.

إن الله عندما يريد بأن يفعل أمراً يجعل له الأسباب. فقد كانت البئر بالقرب منهم على مسافة لا تزيد على ثلاثة كيلومترات في وسط الرمال.

سارت الإبل والراعي، وعبد النبي بالحبر على جواده وبقي في المخيم كل العائلات من أقرباء عبد النبي.

في المساء نفسه وصل إلى المخيم مجموعة من المراحيل اللاحقة ووجدوا جميع الأسر ميتة باستثناء ولدين هما اللافي المبروك بالخير وفرج عبدو.

أوصل رجال ذلك المرحول الولدين إلى البئر وتركوهما هناك ولم يكلفوا أنفسهم البحث عن عبد النبي الذي ترك المخيم قبلهم بقليل، وكانت آثار جواده ما زالت بادية في الأرض.

حاول اللافي وفرج استخراج الماء من البئر، بواسطة دلو، لإرواء عطشهما فانقطع حبل الدلو. نزل اللافي إلى البئر ليخرج الدلو، وبقي فرج عند فوهته، لم يستطع اللافي الصعود من البئر فبقي فيها اثني عشر يوماً وفرج ينزل له التمر في دلو، وينتح الماء لرفيقه، إلى أن وصل إلى المنطقة رجال البريد من التوارق وأخرجوا الولد من البئر. وشرعوا في البحث عن عبد النبي فوجدوا السرج والحصان نافق ولم يجدوا الرجل فحملوا معهم الولدين وساروا إلى ورقلة لينقلوا الخبر.

كلفت الإدارة الفرنسية طائرات ودوريات بالبحث عن عبد النبي فلم تجده. واحتفظ لنا الضابط الفرنسي المكلف

بالبحث صور المأساة، أطفال ميتون داخل الهودج ونساء ورجال كالمومياء ميتون من العطش.

بعد أربعة أشهر وجد راعي الإبل ميتاً بالقرب من بئر القاسي، كما وجدت أسرة عبدالله حماد ميتة جميعاً وبجوارها عظام أربعة من الإبل نحرها ليتَّقي من فرثها شبح الموت، ولم يفد ذلك شيئاً.

ولم يفن عطشاً نجع عبد النبي وحده بل فني أيضاً نجع عمر الأكيرد ونجع عبدالله حماد ونجع عثمان الدلولي.

قامت فرنسا بعد أن أضناها التعب بالبحث عن عبد النبي بالخير ولم تجده بسجن المجموعة التي وصلت إلى النجع أولاً بتهمة أنهم قد يكونون قتلوه وأخفوا جثته أو أنهم لسبب لا يعرفونه ساهموا في قتله. وكان ابنه مصباح في ورقلة في ذلك الوقت فسمع بالخبر، ورجع إلى المكان وطلب من الإدارة الفرنسية أن تطلق سراح المعتقلين فهو لا يتهم أحداً من الناس بقتل والده.

**وتقدم أحد أهالي ورفللة أثناء التحقيق من لجنة التحقيق الفرنسية وأدلى لهم بالإفادة التالية:**

«إن عبد النبي بالخير رجل شهم، وهو لا يمكن أن يترك نفسه يموت فى العراء منكشفاً، ولا بد أنه عندما يئس من الحياة أوى إلى كثيب رمل، وأهال الرمال على نفسه ستراً له»

أقفل الفرنسيون التحقيق في الموضوع واكتفوا بهذه الإفادة.

والمصائب عندما تأتي لا تأتي فرادى، فلقد سرقت الإبل التي كانت بمعية مصباح من ورقلة وذهب في أثرها هو ومفتاح بشابش إلى أن وصلت إلى (بني مزاب) وتقدم مصباح إلى المسؤول الفرنسي هناك يستنجد به ولكن هذا إجابة بعجرفة:

**«إنني لست حاكم إبل اذهب وابحث عن إبلك»**

ورجع مصباح إلى ورقلة ثم بعدها إلى (بني مزاب) وحاول بعض السُّرَّاق قتله هو ومفتاح ولكنه سلم وعاد إلى أهله.

وقد تناول الضابط الفرنسي قصة المأساة في كتاب سمّاه (سرّ الجنوب) أفرد فيه فصلاً تحت اسم (أسرى قاسي الطويل) وقد تناول الأستاذ حسين ترجمة هذا الفصل بتصرف وألقاه في محاضرة بمركز جهاد الليبيين.

وإيضاحاً لحجم المأساة رأينا أن ننقل هنا الفصل الذي ترجمه الأستاذ - كما قال - بتصرف.

**يقول المؤلف:**

«منذ بضع سنوات بدأت السيارات والطائرات تقهر الصحراء كما أصبح جهاز الاتصال اللاسلكي يضمن لعابري

القفار الأمن والأمان بحيث يصعب التصديق - ما لم يتوفر دليل - بقصة قافلة تضلّ سبيلها فتبتلعها الصحراء وتختفي عن الوجود.

إن المسافات في الفيافي كانت تبدو في ما مضى لا حدَّ لها ولا نهاية إلا أن قطعها - في الوقت الراهن - أضحى لا يستغرق إلا فترة محدودة من الزمن وصارت عمليات النجدة والإسعاف من السهولة والسرعة بمكان. ومع كل ذلك فإن الحادث المروِّع الذي جرى بالأمس القريب فقط كان حقيقة ملموسة ولم يكن على علم به إلا ضابط حاميات الواحات ورجال سرايا الهجّانة. وعلى الرغم من الصور الشمسية - التي تم التقاطها بعيد الحادث - وبقيت غير منشورة - ما انفكّت هذه المأساة سرًّا غامضاً.

ففي حقيقة الأمر إن جمعاً من اللاجئين الطرابلسيين المنتمين إلى قبائل ورفللة جاءوا في سنة 1931م إلى الواحة الصغيرة التي يشرف عليها حصن (فورفلاتير) واستقرَّ بهم المقام هناك. إنهم كانوا عاقدين النية على العيش بتلك الواحة في ظل حامياتنا بالصحراء الشرقية.

لقد بلغ فصل الصيف أشدَّه وإن البئر الارتوازية التي كانت تروي نخيل الواحة المذكورة ظلت تسكب - دونما انقطاع - معينها عبد النبي بالخير قائد اللاجئين المذكورين - ذات يوم - على أن يمتطي صهوة فرسه ويتوجه إلى

الحصن المشار إليه آنفاً حيث قابل آمر الحامية. وأعرب له عن مخاوفه قائلاً:

«الله أكبر! حفظت وحفظ جنودك، أبناء فرنسا المضيافة! ولكن ما العمل؟ وأين المفرّ؟ في غضون أيام قلائل ستنفق جمالنا لانعدام الكلأ والمراعي. وفي نجعي أضحى يعاني النساء والأطفال ويلات البؤس والشقاء».

فأجابه الآمر بقوله:

«أيها القائد، إن ما قلت لحق، إذ إن مقياس الحرارة سجل - حوالي منتصف النهار - خمسين درجة مئوية في الظلّ. ولذا يجب أن تعود أدراجك صوب الشمال في سبيل إنقاذ أهلك وماشيتك. ففي ورقلة تتوفر مراع أغنى بالأعشاب وموارد أوسع للعيش يمكن أن تستمد القوافل منها. ولكن الأمر لا يمكن أن يعدو كونه مجرّد قطع المسافة، الفاصلة بين حصن «فورفلاتير» و«ورقلة» والبالغة ما يزيد على الخمسمائة (500) كيلومتر بلا رفقة دليل، علماً بأن «حاسي تارترات» أي بئر تارترات مغمورة بالرمال. فعليك إذن أن تقطع مسافة قدرها مائتين وخمسين (250) كيلومتراً من «حاسي تانزورفت» إلى «حاسي النوارق» بدون أن تجد مورد ماء. إن رجلين من الشعانبة قادمان من «أمقيد» وخبيرين بالطريق سيمرّان - في خلال خمسة أيام -

بالواحة فانتظرهما ومن جهتي سأعمل على إغاثة نجعك وسأعطيك قدراً من الشعير» انتهى الحوار.

هذا وإن المنطقة المشار إليها في الحوار الذي جرى في أثناء المقابلة تعدّ - بالنسبة إلى المناطق الصحراوية - أشدّ رعباً وخطورة من منطقة «تانسروفت» التي لم تكن قط طريقاً تجارية ولا يجرؤ أي من الآهلين على المجازفة باقتحامها والسير في رحابها.

أما «العرق الشرقي الكبير» الذي يمتد إلى الجنوب من «ورقلة» و«توقرت» فهي عبارة عن جحيم فظيع من الكثبان المتحركة التي يمكن اجتيازها من خلال أحد ممراتها ويدعى «قاسي الطويل» وإن هذا المعبر الذي يتوسط أكواماً من الرمال ليس سوى مجرى **«الارهارهار»** **ذلك** الوادي الجافّ العائد إلى عصر ما قبل التاريخ والذي كان يصبّ - بكل يقين - في خليج قابس بعد مروره بشط الجريد في التراب التونسي. وما زال بوسع المرء أن يتابع مجراه بسهولة ويسر ابتداء من منابعه في «الهقار» إلى حمادة «تيزهرت». إن المسافر في هذه المتاهة العارمة يجابه مصيراً يكتنفه الغموض حيث إن «قاسي الطويل» هذا يشبه مسرحاً هائلاً تتعاقب على خشبته مواكب جميع المظاهر والظواهر الطبيعية. فأحياناً تحمرّ الكثبان عند بزوغ الفجر فتبدو شيئاتها واضحة جلية، وتهبّ الصَّبا فتنعش الإنسان بنسيمها العليل،

وأحياناً أخرى كل شيء يتلظَّى، وتهبّ من الجنوب الشرقي ريح كأنها شآبيب من لهيب، وتتصاعد الرمال من كثبانها كالبخار ثم تتكسر انكسار أمواج البحر العاتية، وعندئذ يكفهرُّ الوادي. وفي ظلمته الكالحة يطرق السمع تراشق بعبارات السبّ والشتم، وإذا بعنف الظاهرة وبشعور ينبئ بجور أمِّنا الطبيعة يرميان بالمرء في أحضان البأس والأسى.

هذا وقد حدث ذات مرة أن قافلة من سيارات السرب الأول التابع لسلاح الطيران بإفريقيا قد أجبرت على التوقف عدة أيام وريح السموم على أشدّها. إن الأجزاء المعدنية من مركبات القافلة قد صارت مشحونة بالكهرباء لدرجة أن أحداً لم يستطع ملامستها. ففي خضم تشابك السبل المتجهة من الشمال إلى الجنوب التي كانت تحيط بالكثبان المختلفة الأشكال والهيئات. وكل من يضلّ الطريق ينتهي حتماً - إلى الفناء.

ولسوء الحظ قد حاد سائقو تلك القافلة العسكرية عن الطريق فتورَّطوا في مسالك مسدودة أو استداروا على أعقابهم. وفي الحقيقة أن كثيراً من قادة القوافل والخيالة المحليين وعاملي البريد قد هلكوا نتيجة لتيههم في «القاسي» الذي يسمَّى في إحدى نقاطه «قاسي العظام» أي مجاز العظام - الذي كأنه مزخرف ترابه بهياكل الإبل الهالكة. وعلاوة على ذلك، يشاهد المرء أجزاء من الهياكل العظميَّة

البشرية عرّتها الرياح لتروي قصة شناعة احتضار إنسان مات ظمأ.

إنما الإنسان في الصحراء لا يستطيع العطش يوماً واحداً في فصل الصيف، ويكاد يطيقه البعير ثلاثة أيام.

وكما شهدت سنة 1918م وقوع جريمة اقترفها بعض الفلاقة من التوارق المنشقين الذين نصبوا كميناً لوحدة عسكرية فرنسية أودى بحياة ضابط صف فرنسي وبكثير من الجنود. إن الخنادق التي حفرها القناصة وقتئذ ما زالت قائمة[1]، وإن الموقع ذاته موقع ملعون لا يحب رجال الهجانة أن يتوقفوا فيه.

لقد اكتشف ضباطنا عند «بولقبور» محاجر عائدة إلى عصر ما قبل التاريخ، واكتشفوا أيضاً غابة يرجع تاريخها إلى العصر الثلثي كانت أشجارها متحجِّرة جامدة.

إن عبد النبي بالخير الذي ما كان إنساناً خلواً من مشاعر الكبرياء لم يكترث بنصائح آمر الحامية في «فورفلاتير» فقام في الليلة التالية بشدِّ الرحال مع ركبه المشتمل على واحد وخمسين شخصاً، وسارت قافلتهم نحو مصيرها المحتوم. ومرَّت بحاسي «تانسروفت» للتزوُّد بالماء

(1) هذه المجموعة من المجاهدين هي مجموعة السلطان أحمد آمود بعد احتلالها لجانت، المؤلف.

فملأت قربها ثم واصلت توغلها في العرق حتى تعذَّر عليها السير في وضح النهار، فاضطرت إلى مواصلة رحلتها في ما بعد غروب الشمس. إلا أن هؤلاء السراة الذين كانت تنقصهم الخبرة ولم يكن برفقتهم دليل قد فقدوا على صفحة الرمال آثار طريق السيارات ومسلك القوافل المؤديين إلى ورقلة، وما كان عليهم إلا المضيّ قدماً صوب الشمال مهتدين بالنجمة القطبية على أن متاهة رمال العرق وقفاره الموحشة كانت تجبرهم - بلا انقطاع - على السير وفي خط ملتوٍ غير مستقيم.

وبعد أن استمرت هذه القافلة المنحوسة في تذبذبها ست ليال سويًّا حطَّت رحالها في موقع اعتقده قائدها غير بعيد عن بئر «حاسي التوارق» فانتشر الرجال للبحث عن مورد الرواء في النواحي المجاورة ولم يهتدوا إلى الهدف المنشود، ولم يعثر عليه عدا زمرة مؤلفة من زنجيين وصبي كتبت لهم النجاة[1]. أما الآخرون فقد لقوا حتفهم مع استنزافهم لآخر قطرة ماء في قربهم.

وفي «فورفلاتير» حال وصول الدليلين اللذين كان قد اقترح آمر الحامية خدماتهما على عبد النبي بالخير - أخيراً

(1) الزنجيان والصبي، لم يعثروا على البئر ولكن قافلة أدركتهم أحياء أخذتهم ووضعتهم على البئر كما روى لي يوسف عبد النبي.

بأمر القافلة وبأن أصحابها كانوا يعدمون الخبرة بالطريق. فأخذا يقتفيان آثارها على مسافة بضعة أيام بشيء من الانشغال. وسرعان ما أفضى بحثهما إلى اكتشاف آثار الكارثة التي حلت بإخوان لهم يشاطرونهم مشاعر القلق والاضطراب، إذ وجدوا جثثهم وجيف مواشيهم وحطام أمتعتهم المتناثرة هنا وهناك على الرمال بالقرب من «حاسي التوارق» كانت الجثث تتضح كأنها أكياس رطب مفرط النضج وقد فقأت حرارة الشمس عيون من سقطوا على ظهورهم فظلت وجوههم موجهة نحو السماء ومعرضة للأشعة اللافحة. كما عثر الدليلان على الناجين الثلاثة عند «حاسي التوارق».

إن الصبيّ الذي كان قد أنزله رفيقاه في البئر بقي حتى ذلك الحين حبيس قاعها بسبب انقطاع حبل الدلو. كان يبلغ عمق ماء البئر مستوى ركبتي ذلك المسكين، الذي لم يأل جهداً في تزويد رفيقيه بالماء بواسطة سطل صغير معلق بخيط رفيع طويل. إن أحد الزنجيين كاد يصاب بالجنون لشدة الخوف الذي اعتراه.

لقد تمكن المنجدان من انتشال الصبي من غيابة الجب ثم توجَّها مع الناجين الثلاثة شطر ورقلة لزف أخبار فظاعة ما رأوا إلى السلطات.

وحينما وصلا إلى هناك أخبرا العقيد (كاربييه) كبير قادة

الجنوب الذي لم يلبث أن أوفد كوكبة من الخيالة المحليين بمهمة التحقيق في الحادث بالموقع وكلّفهم - بوجه خاصّ - بإكرام الضحايا ومواراتهم التراب كما يجب. ولكن الخيالة لم يوفقوا في أداء ما أوكل إليهم حيث إن تنقيبهم عن رفاة الهالكين في تلك الفيافي، وجهودهم التي بذلوها قد باءت بالفشل. وفي الحقيقة إن الرياح العاتية المشبعة بالرمال لم تبق ولم تذر شيئاً تقريباً من مشتملات نجع القافلة، وكادت تمسح بساحة الهلاك تلك مسحاً كليًّا.

إن انزلاقاً غريباً كان قد أخذ في إزاحة التربة الغامرة لآثار كل خراب ودمار. وفي وضح النهار، وأشعة الشمس تكاد تلتهب، كان يبدو أن الصحراء قد استعادت جمالها المثير للعواطف، وأنها استردَّت سكونها المطلق الرهيب الذي كان يشبه سكون المقابر. أما الأرض فكانت تبدو لينة ملساء وما كانت تبصر النواظر - هنا وهناك - سوى عمامة مصفرَّة اللون بالية، وما عوناً هزيلاً وبضعة أشلاء مجرَّدة من اللحم.

وفي قفص هودج مزقت العواصف الهوجاء أستاره كان لا يزال منبسطاً هيكل أحد صغار تلك القافلة المنكوبة وكأنه مسجًّى في ذاك المهد المروِّع.

وكان في حكم المستحيل فك تلكم الأنكات البشرية وتخليصها من الكثبان الضخمة المتراصَّة.

هذا وإن الوصف المثير الذي وصفت به حال القافلة التي طوتها الصحراء يعود الفضل فيه إلى العريف «بيانكي» أحد ضباط صف الفرقة الأجنبية، الذي ألف جوب القفار الرملية والتجوال في فيافيها. وهو إنسان كان يحبه سكان ورقلة قاطبة، ويحظى بتقديرهم لما كان يتحلّى به من دماثة الأخلاق.

إن أمثال هذا الرائد الصحراوي يعتبرون في عداد أجلاَّء الناس بالواحة، الذين يستوي لديهم الجلد والمديح». انتهى.

# مرحول.. من ضمن المراحيل

قرّر الكثير من المجاهدين (الهروب) من تجمع وادي تيهاوت حيث الفناء البطيء من الجوع وقلة الزاد.

الأشخاص الذين لم يكونوا معروفين للفرنسيين قرروا الانطلاق من هذا المعتقل بحثاً عن العيش خارجه، وهؤلاء الرجال بأسرهم صادفتهم حظوظٌ مختلفة.

لقد رصد مركز الجهاد الليبي رواية أحدهم ويدعى المهدي إبراهيم المخيون المقرحي. الذي رافق مرحول المجاهد محمد بن عامر المقرح في هذه الهجرة.

**يقول إبراهيم:**

«وصلنا إلى مرحلة من المجاعة لا توصف، وكنا نأكل القطف وأعشاب الأرض وقد جمعنا الفرنسيون في وادي تهاوت ومنعونا من التقدم إلى الأمام.

قلنا لمحمد بن عامر، نحن الناس المساكين لم يعد لنا

ما نأكل ولم يعد لكم ما تنفقونه علينا، والأفضل أن نتسلل إلى داخل الجزائر. إما أن نموت بعيداً عن أهلنا أو نجد ما نأكل، وإذا قبض علينا الفرنسيون قل لهم إنهم سرقوا أنفسهم ولا أعلم عنهم شيئاً وهربوا هروباً.

أجابهم محمد بن عامر عندكم حق وإن شاء الله ما تشبحوا حد.

وسأقول إنني لا أعلم عنهم شيئاً وإنهم تأخروا عن المراحيل وتاهوا.

اتجهنا إلى ورقلة وكنت أنا أملك بعيراً وابن عمّي يملك بعيرين وعمّي يملك بعيراً.

ارتحلنا بعائلاتنا ودخلنا سريراً من الرمال سبعة أيام لم نجد فيها حجرة واحدة ولا قطرة ماء. في نهاية اليوم السابع وردنا بئراً تسمى (لخلال) ويسمونها (القاسي) قبل الوصول إلى ورقلة بخمسة أيام، وأغلب الناس الذين ارتحلوا بعدنا ماتوا في ذلك السرير بالعطش.

لقد ذهبت قوافل قبلنا إلى عين صالح لتجلب لنا الميرة ولكنها تأخرت في الوصول.

استطعنا أن نصل إلى بئر (القاسي) حيث شربنا وليس لنا أي شيء غير الماء فبحثنا عن جلد بعير كان في متاعنا،

وسرنا نقتطع منه ونحرقه بالنار ثم نسحقه في المهاريس ونسفُّه ونشرب عليه الماء.

استمررنا على هذه الحال ثلاثة أيام. وفي نهاية اليوم الثالث وصلت إلى البئر قافلة قادمة من (ورقلة) الجماعة من الشعانبة (جزائريين) (12) بعيراً، يسوقها ثلاثة رجال استقبلتهم **وأنا أقول لهم**:

«يا جماعة عندكمش باش تقوتونا؟ اليوم لينا ثلاثة أيام ما ناكلوا كان في الملخة ولا في الخبر ما يندس».

قال أحدهم: عندنا كل خير. وتقدم من الجمل وبركه وأعطاني حوالي ثلاثة صيعان دشيشة (سميد) وبرك الجمل الآخر وأعطاني حوالي كيلوغرامين تمراً. وقال:

**- أنتم الطرابلسية الهاجّون من الطليان؟**

**قلت له:**

**- نعم**

**قال**: وصلتوا الخير. غدوة هالوقت توصلوا للعرب.

وذهبت أبحث في مكان قافلة فوجدت بقية الشاي (الحشيشة) ملقاة على الأرض فجمعتها ورجعت إلى العائلة، وأعددنا الشاي ووضعنا التمر بدلاً من السكر وأعدَّت النساء الكسكس وتعشينا وشبعنا لأول مرة منذ زمن.

وحتى الكلب الذي يرافقنا نبح لأول مرة تلك الليلة بعد أن شبع هو الآخر.

ووصلنا إلى ورقلة وبقينا فيها ثلاثة أشهر واسترحنا ونسينا التعب والجوع والملخة، ومنها رحلنا باتجاه تونس حيث وصلنا إلى الرديف واشتغلنا في استخراج الفوسفات.

# الهجرة من واو

في صباح يوم 13 يناير 1930م فوجئت مخيمات المواطنين الليبيين بهجوم الطيران الإيطالي على النجوع التي كانت تحوي النساء والأطفال. لأن أغلب الرجال كانوا في منطقة أم الأرانب يقارعون العدو الزاحف لاحتلال فزان.

وتقدمت القوات الأرضية بمصفحاتها وسياراتها لتهاجم المواطنين من كل جانب. كان المرحوم الحاج محمد التمامي صغيراً دون العاشرة في يوم الهجوم. حدثني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما كنا جميعاً في لجنة (الصلح) بين القبائل. وعندما كنا في مدينة غريان مع مجموعة من الشيوخ بعضهم ساهم في الجهاد أمثال أبي بكر المقريف رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وبعضهم سمع عن الجهاد وساهمت أسرته أمثال الحاج عمر كنيش ومجموعة أخرى من مختلف المناطق.

**قال الحاج محمد**: كان ذلك اليوم يوماً مشهوداً لا ترى فيه إلا الحرائق والدماء والجثث والجرحى. خرج من بقي

حيًّا هائماً على وجهه. وسقط أغلب الرجال المدافعين على النجوع شهداء. والباقون فرغت ذخيرتهم وقادوا الأطفال والنساء عبر الصحراء بعيداً عن العدو.

اتجه الجميع باتجاه (أوزو) في سفح جبال تيبستي. الموقع الوحيد الذي تتوفر فيه المياه. ستة أيام كاملة والناس مبعثرة في تلك الصحراء ووجهتهم (أوزو).

الغارة لم تمنحهم الوقت ليحملوا معهم زاداً أو مياهاً. تساقط النساء والأطفال في الطريق بل في الصحراء بدون طريق قتلى عطشاً، وتعباً.

كانت أمي رحمها الله تحمل أختي على ظهرها. كان عمرها سنتين. تعبت أمي. وبدأت تتأخر في السير. كان والدي ينتظرها وأحياناً يعود إليها. كنا نلوذ بأمِّي ونتأخر بتأخُّرها.

في اليوم الثالث تعبنا جميعاً. كان البرد قارساً في الليل لدرجة التجمد. نحن بدون أغطية. وبدون أكل. وبدون شرب أيضاً.

رجع أبي يحثُّ أمي على السَّيْر. غير أنها عجزت عن مواصلة الرحلة. وهي تحمل أختي. هنا قرر أبي القرار الصعب المؤلم. **قال لها**: اتركي الطفلة. وحثِّي السير معنا. رفضت أمي. غير أن أبي ألحَّ عليها وأصرَّ. وأوضح لها بأنها ستموت معها إذا لم نتركها.

تركت أمي أختي في العراء تبكي. ومشت قليلاً ثم عادت إليها فعاد أبي وراءها وأمرها بالسير من دونها.

كانت أمي تبكي. وكنَّا جميعاً لا نقوى على البكاء.

بقيت أختي في موقعها ذلك تبكي. كنا نسمع بكاءها إلى مسافة بعيدة. وإلى هذه اللحظة لا زال بكاء أختي يرنُّ في أذني كلما تذكرت الموقف.

عشرات الأطفال موتى في الصحراء. وعشرات النساء تساقطن من الإعياء والعطش والجوع والتعب. لا أحد يسأل أحداً عمَّا به. فالكلُّ في شغل شاغل عن غيره.

بعد ستة أيام وصل الناجون إلى (أوزو). اندفعوا نحو الماء. وقف التبو يمنعون الناس من الشرب إلا بثمن. قدمت النسوة ما بحوزتهن من حلي متواضع للتبو. أساور فضية. أغراض صغيرة. عقود من الخرز. وأي شيء يقدم نظير جرعة ماء لهنَّ ولمن بقي من أطفالهنَّ على قيد الحياة.

استمرّ الوضع يوماً كاملاً والناس لم تطفىء ظمأها حتى لحق المجاهدون بالمهاجرين واستولوا على منابع المياه وشرب الجميع. ولحق بعض الرعاة بإبلهم التي لم يستولِ عليها الإيطاليون. وارتحل الناس إلى داخل تشاد. حيث استقبلهم التشاديّون بكل حفاوة وتقدير.

ولم تكن قصة الحاج محمد التمامي هي الوحيدة في

هذه الهجرة القاتلة. بل عشرات الأسر حدث لها ما حدث لأسرة التمامي.

**ويقول قرسياني القائد الإيطالي** عن هذه المذبحة: إنهم فقدوا ثلاث طائرات. حيث أمرهم بتعقب المهاجرين حتى الليل وقصفهم.

ويقول «كان هناك أربعمائة أسير كادوا يكونون كلهم من النساء والأطفال والشيوخ» **ويقول قرسياني**: «وقد راعى العساكر الذين أذنت لهم بالسلب والنهب بدقة ذلك الإذن الذي تلقّوه».

# الهجرة من القفرة

وصلت القوات الإيطالية الزاحفة إلى القفرة (جالو) يوم 19 يناير 1931م بعد معارك طاحنة في أجخرة وقارة تيسلاميت. ومعركة راس الحاد. معركة ثماد بوحشيشة. معركة (عويدات الحد) معركة ثماد بوحشيشة الثانية[1]. كل هذه المعارك قامت تمهيداً لاحتلال القفرة التي وصلها الإيطاليون يوم 9 يناير 1931م وقصفوها بالطيران واستخدموا الغازات السَّامَّة. وتصدى المجاهدون لهذه القوات الزاحفة بكل بسالة وبطولة غير أن القوة كانت غير متكافئة. فاستشهد من استشهد. ومن بقي على قيد الحياة انسحب مهاجراً باتجاه مصر عبر الصحراء الكبرى القاتلة. أما الجرحى فلقد قضى عليهم الإيطاليون قتلاً.

---

(1) انظر كتاب الصحراء تشتعل - للمؤلف.

**ويقول قرسياني عن هذه المعركة:**

«.... حتى ولو أنها حمّلتنا خسائر فادحة. لكن كان النصر لنا نتيجة أن قوات الثوار تحت قيادة رجال مهمين من أمثال (صالح الأطيوش) و(عبد الجليل سيف النصر) و(حمود بن شغيلي) و(أحمد بن شريف) و(عبد الحميد بو مطاري) الذين قابلوا قواتنا الكبيرة بكلِّ عددها وعدَّتها من دبابات وطائرات وإنها معركة غير متكافئة، رغم هذا كله كانوا أشداء أقوياء صامدين صابرين لا يتقهقرون أبداً حتى ولو أدى ذلك لفنائهم جميعاً مؤمنين بأنهم أصحاب حق وشجاعة»[1].

ارتحل المجاهدون باتجاه الصحراء نحو مصر. ولاحقتهم الطائرات الإيطالية تقصف الناجين منهم. **ويقول قرسياني مفتخراً:** «وفي يوم 20 يناير 1931م صدرت الأوامر إلى القوات الجويَّة بملاحقة المنسحبين وإلقاء القنابل عليهم ومطاردتهم إلى أن يفنوا جميعاً. وقد استمرت الطائرات الإيطالية بمطاردة المجاهدين المنسحبين حتى بئر (بشارة) جنوباً باتجاه تيبستي».

**ويقول قرسياني:**

«عندما وصل النقيب (بونينكي) إلى معطن (بشارة)

---

(1) قرسياني: برقة الهادئة ص 211.

والطرق المتفرعة منه وجدها مليئة بجثث الموتى والأشلاء المبعثرة للنساء والأطفال نتيجة الغارات الجوية»[1]

**وكتب أحد طياري حملة قرانسياني هذه المدعو فينتشينتوبياني يقول:**

«أقلعت الطائرات من بئر الزيغن عند الفجر وتعرفت إلى آثار أقدام العصاة الهاربين وتتبعتها حتى صارت فوق الرجال وكان للقنابل أثر ضئيل نظراً لأن أجزاء الهدف أشد ما تكون تفرقاً. إما الرشاشات فتظفر دائماً بصيد وفير، تصوب نحو رجل فتسكن حركته إلى الأبد. وتوجه إلى ذود من الإبل فتصرعه جميعه (....) وتستمر اللعبة طوال النهار وتتكرر في غده وفي اليوم الثالث أيضاً. وتواصل استكشاف جميع طرق التراجع المحتملة وثم تتبعها لمسافة 300كم أي إلى الحد الذي تمكن فيه رؤية آخر هارب. وتحولت طرق قوافل النجاة المأمولة إلى مقبرة لموتى مهملين لن يفكر أحد في دفنهم»[2]

وهكذا كانت مسيرة قافلة الهجرة من القفرة. مطاردة من الطائرات. ومطاردة من الأجل المحتوم بالعطش أو الجوع أو التعب أو بجميعها.

---

(1) قرسياني: برقة الهادئة ص 214.

(2) ديل بوكا ص 253.

فلقد ارتحل المجاهد صالح الأطيوش بمن معه من جالو باتجاه العوينات آخر واحة في الأراضي الليبية **ويقول ديل بوكا عن هذه المجموعة:**

«. . . . وصل الأطيوش برفقة رجاله وأسرهم العوينات آخر واحة في الأراضي الليبية بها ماء عذب. وبعدها وصل إلى (آبار المرقى) ومن هناك أخطأ صالح الأطيوش وقومه الطريق بسبب نصيحة غير مخلصة من دليل خائن. وأخذ يضرب في الصحراء في بحث يائس عن الماء والطعام. وتجول على غير هدى سبعين يوماً بحثاً عن مضارب لبدو رحَّل وصفت لهم. وكما قص هو نفسه» كنا نذبح القليل من الإبل التي بقيت لنا لنستخلص من كروشها القليل من السائل الذي نوزعه على من هم أشد عطشاً لإنقاذهم من موت محقق، وقضى منا 170 فرداً نحبه. وكاد الناجون يموتون حتماً لو لم تسعفنا العناية الإلهية بهدايتنا إلى بقعة وجدنا فيها كيساً من الدقيق وآخر من السكر والشاي». وفي النهاية أبصرتهم عن بعد دورية من الجنود الإنجليز فقامت بتجريد العصاة من أسلحتهم. ووجهتهم إلى نقطة حدود (أبو منقار) أعقب ذلك ترحيلهم في سيارات حسب طلبهم إلى وادي النيل حيث حطوا رحالهم في (المنيا) وما زلنا مع صالح الأطيوش **وهو يروي:**

«منذ وصولنا إلى هذا المكان مات منا 17 إنساناً. آخر

بسبب إسهال شديد نتيجة إقبال كثير على الطعام بعد حرمان طويل».

ويقول السنوسي الأطيوش. الذي فارق والده في مرحول آخر وصل إلى (آبار المرقى) ثم عاد أدراجه ليلتحق بمرحول والده. فوجد في آثار المرحول آثار الغارات الإيطالية على المهاجرين. ووجد القتلى من بينهم أمه وأخته **هكذا هي المآسي التي خلفها الاستعمار الإيطالي لليبيا.**

أما «المجموعة التي كان يقودها عبد الجليل سيف النصر. فلقد تاهت هي الأخرى في الصحراء ووردت العوينات (وآبار المرقى)» **ويقول دي بوكا:**

«وتاهوا في الصحراء عند الحدود بين مصر والسودان لكن كابوسهم لم يدم طويلاً إذ عثرت عليهم سريعاً دوريات إنجليزية مصرية وبعثت بهم أيضاً إلى (المنيا)»[1].

---

(1) ديل بوكا: المصدر السابق ص 253 – 254.

# رفاق المختار
# والهجرة المستحيلة

بدأ الإيطاليون يطبقون خطة الأرض المحروقة في جميع أنحاء ليبيا. وخاصة الجبل الأخضر حيث لا تزال المقاومة صامدة تتحدى المستعمر **بقيادة شيخ الشهداء عمر المختار.**

رحَّلَ الإيطاليون جميع سكان الجبل الأخضر وحاصروهم في مخيمات (معتقلات) محاطة بالأسلاك الشائكة تحت نظارة الجنود الطليان.

وتفتقت عبقرية الجلاَّد (قرسياني) في قطع الإمدادات المتسربة من مصر بإقامة شريط من الأسلاك الشائكة الملغَّمة والمُكَهْرَبَة وبطول أكثر من ثلاثمائة كيلو متر على طول الحدود الليبية المصرية. وبعرض قرابة العشرين متراً من الصعب اجتيازها إلا بصعوبة وتصميم.

أصبح المجاهدون محاصرين في الجبل الأخضر بعد أن انقطعت عنهم الإمدادات. وصاروا يقتاتون بالأعشاب

ولحي الأشجار دون أن تخور عزائمهم أو يفكروا في الاستسلام. يهاجمون العدو كلما سنحت الفرصة للهجوم. حتى **إن قرسياني قال في مذكراته** (برقة المهداه) أن المجاهدين اشتبكوا معهم في مائتين وست وسبعين معركة وذلك في حديثه عن عمر المختار.

في اليوم الذي استشهد فيه الشيخ عمر المختار، قرر مع خمسين فارساً من المجاهدين أن يزور ضريح سيدي رافع الأنصاري. ويقرأ الفاتحة على روحه.

عند عودة المجموعة وقائدها ومرورهم بوادي (بوطاقة) انهمر عليهم الرصاص. إذ إن الإيطاليين نصبوا لهم كميناً عندما علموا بهم عن طريق عيونهم المبثوثة في المنطقة.

**كان صاحب الحديث المجاهد سعيد جربوع أحد المجموعة وكان في ريعان شبابه.**

قال: «نفدت ذخيرتي فطلبت من سيدي عمر الذخيرة فزودني بثلاثة أمشاط (المشط به ستّ رصاصات) ثم فرغت ذخيرتي مرة أخرى فتوجهت لسيدي عمر أطلب الذخيرة. فزودني بثلاثة أمشاط أخرى.

جرح سعيد في يده وسقط شهيداً المجاهد عوينات العقوري وجرح الشيخ عمر المختار وسقط على الأرض.

فتحلق حوله المجاهدون يفتدونه بأرواحهم. وكان المجاهد **مفتاح قويرش الحاسي يرتجز وهو يقاتل.**

(دمـــــي رايـــــب دون الـــشـــايـــب)

فسقط شهيداً عليه رحمة الله.

اقترب سعيد من الشيخ عمر المختار مستلهماً منه الأوامر.. أو أن يحمله من الأرض.

قال الشيخ عمر المختار لسعيد «عدواً يا ضناي هذا يوم لا لي ولا لكم».

تفرقت المجموعة التي بقيت على قيد الحياة. كل واحد يدافع عن نفسه. وتوزعوا في شعاب الجبل الأخضر. واندفع الإيطاليون باتجاه الشيخ عمر المختار واكتفوا بالقبض عليه جريحاً وقيدوه كما هو معروف وحملوه معهم أسيراً.



# التجمع واستمرار الجهاد

تجمعت المجموعة من جديد. وقررت مواصلة الجهاد بالرغم من شحّ الذخيرة والتموين وانعدام الإمداد.

أكل المجاهدون كل شيء يؤكل. الحشائش. والترثوث والقعمول. ولحي وأوراق الأشجار. يشنّون الهجمات على المواقع الإيطالية. فمرَّةً يحالفهم النصر ويغنمون أسلحة وذخائر. وتموين. ومرة لا يحالفهم.

وأمام الجوع. والعري. ونفاد الزاد رأوا أن يقسموا أنفسهم إلى مجموعات صغيرة تستطيع التحرك. وتستطيع أن تسدّ رمقها بالقليل من الحشائش التي تجدها ويجمعها البعض لإطعام البقية.

كان سعيد جربوع ضمن خمسة وثمانين مجاهداً هي مجموعته. والتي استمرت تقاتل كما استمرت المجموعات الأخرى تقاتل الإيطاليين سنة كاملة بعد استشهاد شيخ الشهداء عمر المختار.

تمزَّقت ملابسهم. تمزَّقت أحذيتهم. نحلت أجسامهم. هزلت جيادهم. أصبحوا يتمنون الشهادة على هذه الحياة البائسة. وشرعوا في هجومات قاتلة حيث هاجموا مدينة بنغازي (سوق أحداش) وغنموا تمويناً وأقمشة. ثم هاجموا موقعاً آخر وغنموا (150) مائة وخمسين بعيراً.

# الهجرة عبر الأسلاك الشائكة

هنا قررت المجموعة الهجرة إلى مصر بعد أن توفرت لهم وسائل النقل.

الخروج من الجبل الأخضر مخاطرة. إذ إنهم سيخرجون من حماية الغابة والأودية السحيقة إلى الصحراء المكشوفة، والإيطاليون يرصدونهم. وطائراتهم تمشط المنطقة الخالية من السكان. وعيونهم المبثوثة في كل مكان ترصد أي تحرك.

والدوريات العسكرية الراجلة. والراكبة. والآلية. وعلى المهاري. والخيول. تمسح الحدود وتتبع كل أثر داخل أو خارج.

الأسلاك الشائكة مزوَّدة بكشافات إضاءة تكشف المنطقة ليلاً. وترصد كل متحرك صغيراً أو كبيراً. وجنود الحراسة أصابعهم على الزناد.

اجتمعت المجموعة وقررت الهجرة. والذين بقوا في

الوطن تبرعوا بأحذيتهم للمهاجرين وبالفائض من ملابسهم وتموينهم.

تحركت المجموعة في طريق ملتوٍ عبر الصحراء عديم المياه وكانوا صياماً في شهر رمضان المكرَّم. وحتى ولو لم يكن شهر الصيام لكانوا صُيَّاماً لأنهم لا يجدون ما يأكلون وقد فرغ الماء منهم.

خمسة أيام بدون ماء. وبدون أكل. وهم باتجاه الموت. تساقط بعضهم في الطريق عطشاً. استشهد اثنان من المجموعة. سقطا عطشاً دون أن يستطيع أي من الرفاق مدَّ يد العون لهما أو مساعدتهما على القيام إذ إن كل شخص في شغل عن صاحبه. لم تستطع المجموعة الإقامة في مكان واحد. ونحر بعض الإبل لشرب دمها وعصر فرثها مخافة أن ينكشف موقعهم. فرض الحال عليهم السير الحثيث وبمنتهى السرعة.

اقتربوا من موقع الأسلاك. لم يعد يفصلهم عنها إلا مسيرة يوم أو بالأصح ليلة. لقد اختاروا السير ليلاً. واختاروا أن تكون ليلة وصولهم بدون قمر. غير أن العطش فتك بهم. ولم يستطيعوا مواصلة السير إلا بصعوبة. ولم يستطع الراكبون منهم مسك أنفسهم على خيولهم أو على ظهور الإبل.

هنا أناخوا إبلهم واجتمعوا يفكرون في المخرج. تقدم

منهم الشيخ الفقيه بو زينوبه. إمام الركب وخطب فيهم واعظاً. وطلب منهم اللجوء إلى الله. فلا هروب منه إلا إليه. وصلَّى بهم صلاة الاستسقاء. وما هي إلا دقائق حتى انهمر المطر وامتلأت الغدران. فشربت المجموعة وشربت حيواناتهم. وقويت نفوسهم. وملأوا قربهم وتلك هي رحمة الله.

هنا وقف الشيخ بوزينوبه واعظاً قائلاً لهم: إننا قادمون على العدو. وإذا ما ظفر بنا النصارى سينكلون بنا. وعليه عليكم الاستعداد للمعركة والاستعداد للموت. وطلب من كل اثنين أن يغسلا بعضهما البعض تغسيل الموتى. وقصروا لحاهم التي طالت طيلة السنوات الماضية. وقلَّموا أظفارهم وقام الشيخ وصلَّى بهم صلاة الجنازة على أرواحهم استعداداً للموت وملاقاة الله وهم على طهارة.

ثم قام الرجال يودعون بعضهم البعض الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده إلا في الجنة. إن شاء الله.

ارتحل الجميع مفعمين بالإيمان مصممين على الاستشهاد باتجاه (الأسلاك) حيث الموت الزؤام وحيث العدوُّ المتربِّص.

في الطريق. والشمس تنحدر للغروب وجدوا امرأة مع ابنها هائمة في الصحراء هاربة من الطليان وفضائحهم. حملوها معهم، وتقدموا في إصرار وتصميم. حبسوا

الأنفاس. حين وصولهم إلى الأسلاك. وشرع اثنان منهما في قصها بمقص أرسل لهم من إخوتهم في مصر.

مسك سعيد بأحد ذراعي المقص. ومسك المجاهد عبد المولى الحويطي البرعص بذراعه الآخر وشرعا في قصّ الأسلاك.

انتبه الحراس للحركة. ووجهت الكشافات نحو المجموعة. وانهمر الرصاص من كل جانب.

تصدَّى المجاهدون للعدوّ. واستمرَّ سعيد وزميله في قصّ الأسلاك لفتح ثغرة لمرور المجاهدين. سقطت مجموعة من المجاهدين شهداء رحمة الله عليهم، منهم عبد الهادي بوجزينه العبيدي. وعبد اللطيف العوامي. وقبض العدو على المجاهد بوصليل العبيدي. وتساقطت الحيوانات قتلى. الإبل. والخيل. وسعيد وصاحبه لا همَّ لهما إلا فتح الثغرة.

وفي معمعة المعركة. والرصاص كالشهب يضيء ظلمة الليل. والكشافات المبهرة للأبصار تتركز على مجموعة المجاهدين وحيواناتهم. في هذه الأجواء بين التكبير والتهليل. وصافرات العدو وأوامر ضباطه الإيطاليين ورغاء الإبل المصابة وصهيل الخيل الجريحة ولعلعة الرصاص استطاع سعيد وعبد المولى من فتح ثغرة اندفع المجاهدون منها يحملون خمسة جرحى، وتلك السيدة وابنها.

وعند الفجر تفقدوا بعضهم البعض. فإذا بهم خمسة وسبعون مجاهداً استطاعوا اجتياز الأسلاك. وملابسهم ممزقة وجروحهم نازفة.

واصلوا رحلتهم على الأقدام، فلقد قتلت جميع حيواناتهم. حتى وصلوا إلى نجع لقبيلة (الجرارة) في الجانب المصري فأكرموهم. جزاهم الله خيراً.

وتحرَّكت القوات المصرية للقبض عليهم وأرادت مصادرة أسلحتهم. غير أنهم رفضوا تسليم أسلحتهم فأرسلت إليهم الحكومة المصرية وفداً للتفاوض معهم. وتدخل الشيخ خليل السنيني في السلوم. وهو أحد شيوخ قبيلة أولاد علي[1] الذي كان له الفضل في مساعدة المجاهدين الليبيين.

وعلى ضمانة الشيخ خليل سلم المجاهدون أسلحتهم. وتفرقوا في مجموعات صغيرة. وبحث كل منهم عن موقع عمل. واشتغلوا بأجور زهيدة لدى الفلاحين. وذلك ليحفظوا كرامتهم من الفاقة.

(1) أولاد علي: قبيلة ليبية نزحت من الجبل الأخضر إلى الصحراء الغربية من جمهورية مصر العربية إثر نزاع بينها وبين قبيلة العبيدات.



# في فلسطين

استمرت المجموعة في مصر قرابة السنة. وأخيراً بمعرفة المواطن الليبي يادم غيث العرفي الذي كان موظفاً في البنك العربي. وجد لهم عملاً بفلسطين في مزرعة لمواطن فلسطيني يدعى (سعيد درويش).

انتقل سعيد جربوع وأعمامه علي وعبد الونيس عبد الجليل ومعهم رفاق الجهاد عيسى النفاقة وسعد رحومة الرقيعي وحمد بن شعيب المغربي وعبدالله الفيل العرفي ومحمد الغايش العرفي. وشرعوا في العمل كخفراء لمزارع الزيتون التي يملكها درويش هذا. واستطاعوا أن يحموا مزارعه من اللصوص في مصادمات كثيرة كما استطاعوا حمايتها من عصابات الصهاينة.

وتحول دفاعهم عن هذه المزارع إلى دفاع عن فلسطين حيث اشتركوا في الجهاد ضمن إخوتهم الفلسطينيين وتعرفوا على المجاهد عبد القادر الحسيني قائد المقاومة

الفلسطينية الذي استشهد فيما بعد.

بقيت المجموعة في فلسطين لمدة سنتين وكانت الحرب العالمية الثانية في أوجها.

وعلموا أن الإنجليز يجندون الليبيين لقتال عدوهم اللدود الطليان في ليبيا. فرجعوا إلى مصر حيث انضموا للفرقة الليبية التي جندها الإنجليز (الجيش السنوسي) ودخلوا إلى ليبيا دخول الفاتحين بعد أن ساهموا في قهر القوات الإيطالية الغاشمة[1].

وبعد استقلال ليبيا أصبح سعيد جربوع عضواً في مجلس الشيوخ الذي ترأسه زميله في الجهاد عبد الحميد العبار. والذي هاجر هو الآخر عبر الأسلاك الشائكة بعد خروج مجموعته بشهر. ونجح في التسلل.

وفي أواخر عام 2006م سمعت أن المجاهد سعيد جربوع توفي رحمه الله[2]. عن عمر يناهز الثامنة والتسعين سنة بعد أن جرح عدة مرات في الجهاد. وقتل تحته ثلاثة جياد. وجاهد في ليبيا. ومصر وفلسطين. وتوفي على فراشه. فلا نامت أعين الجبناء.

---

(1) القصة أخذت بتصرف عن الأستاذ د. فرج عبد العزيز نجم الذي قابل المجاهد ونشر مقابلته على الإنترنت في موقع (ليبيا - جيل).

(2) سعيد جربوع من قبيلة العبيد اشترك في الجهاد مع الشيخ عمر المختار وهو من مواليد 1908م بالجبل الأخضر.

# العيد القاتل

ذكرنا أن نجوع المجاهدين الذين اتجهوا للجزائر أوقفهم الفرنسيون في (وادي تيهاوت) ثلاثة أشهر.

وحدثت في هذا الوادي الكثير من القصص لضياع الأطفال[1] والرجال والنساء والمراحيل والقوافل.

ومن الذين لحقهم أذى العطش في هذا المهمة. المجاهد مسعود عوير الورفللي. الذي سكن بأسرته في منطقة خارج الوادي. وجاء إلى المخيمات ليشتري شياهاً لعيد الأضحى.

اشترى عنزين. وقرنهما بحبل وساقهما أمامه باتجاه مخيمه. غير أنه ضلَّ الطريق.

واستمر في سيره على غير هدى. ونفدت كمية الماء القليلة التي معه. وافترق عن العنزتين وبدأ يسير عبر الرمال

---

(1) انظر قصة يتيم وادي تيهاوت - للمؤلف.

والصحراء والحر اللافح إلى أن سقط إعياءً مغمًى عليه.

وشاءت الأقدار أن سيدة تارقية كانت ترعى بمعيزها قريباً من تلك المنطقة التي سقط بها فرأته. وجاءت إليه. وبدأت تسكب السمن في حلقه. وتقطر الماء في فمه إلى أن عاد إليه وعيه. فصحبته معها إلى الخيمة وكان لا يعرف لهجتها وهي لا تعرف لهجته. وكان صاحب الخيمة التارقي غائباً في أحد الأسواق البعيدة يجلب الميرة لأسرته. جلس مسعود في تلك الخيمة شهراً كاملاً ولا يتفاهم مع تلك السيدة الكريمة إلا بالإشارة. وهي تطعمه وتسقيه إلى أن حضر صاحب الخيمة.

عرف من مسعود قصته. غير أن مسعود لم يعد يعرف أين تقطن خيامه. فاقترح عليه صاحب الخيمة أن يلتقي به لأصحاب البريد - وهم على الجمال - الذين يتوجهون إلى (تمنراست) ويعودون منها في طريق قريب من خيمة الرجل.

تمنراست تبعد على مخيم مسعود أكثر من أربعمائة كيلو متر.

سار مسعود مع رجال البريد حتى وصل إلى تمنراست. وانتظرهم حتى انتهى عملهم وقرروا العودة فعاد معهم.

أربعة أشهر ونصف هي المدة التي قضاها مسعود عوير في ضياعه. وقد اعتبرته العائلة ميتاً وقضت زوجته عدتها.

بعد هذا الزمن كله عاد مسعود عوير إلى المخيم في وادي تيهاوت. حافياً عاري الرأس في أشد حالات الضعف. حيث استقبله المجاهد عبد النبي بالخير. ومن معه. وأولموا فرحاً بقدومه. وقد شاءت المقادير أن يصل مسعود إلى تونس ويشتغل بها. وبعد خروج الطليان من ليبيا عاد إلى وطنه. وتوفي به في أواخر الستينيات رحمه الله.

# العودة إلى الوطن

حدثني المجاهد على بن سعيد الجواشي. والذي كان ضابطاً في الجيش التركي. ورافق المجاهد سوف المحمودي في عودته من الشام إلى أرض الوطن لتحريك الجهاد ضد الطليان في بداية الحرب العالمية الأولى.

قال: تم تكليف المجاهد سوف المحمودي من قبل الأتراك بالعودة الى الوطن وتحريك الجهاد ضد الطليان بعد أن منحوه رتبة رائد في الجيش. ووظيفة نائب الوالي في طرابلس الغرب.

تحرَّكت المجموعة من تركيا بحراً في أوائل عام 1915م ووصلت إلى مصر. ومنها تسللوا عبر الحدود مخافة من أعين الإنجليز الذين كانوا يبحثون عنهم للقبض عليهم.

وصلوا إلى الجغبوب حيث قابلوا المجاهد أحمد الشريف السنوسي والذي عينه الأتراك نائب السلطان في

شمال إفريقيا، ومنح سوف المحمودي وظيفة نائبه في طرابلس الغرب.

ركبت المجموعة الإبل وكانوا في حدود الخمسة عشر رجلاً. متخذين من الصحراء ساتراً لهم قاطعين الفجَّ الفاصل ما بين الجغبوب وسرت. والذي لا توجد به طريق. ولا مياه.

اتخذوا خبيراً يدلهم على مواقع المياه. ويوصلهم إلى منطقة سرت. بعيداً عن أعين الإيطاليين.

غير أن الدليل تاه بهم في الصحراء. ولم يخبر المياه. ونفذت مياه المجموعة. وأصبحوا أقرب للموت منهم إلى الحياة. فقرر بعضهم إعدام الدليل. غير أن الشيخ سوف المحمودي منعهم من ذلك قائلاً لهم. سنموت جميعاً بما فينا الدليل ولا داعي لتعليق ذنوب قتله في رقابنا.

جاءوا إلى قرارة، وتعبوا من السير، فأناخوا إبلهم واستلقوا على الأرض ينتظرون مصيرهم.

ذهب الشيخ سوف إلى مرتفع قريب. وصلى ركعتين وقال: اللهمَّ إن كانت هجرتي خالصة لوجهك وجهادي خالصاً لوجهك فأغثنا ولا تقتلنا عطشاً.

**قال علي بن سعيد.** وقبل أن يصلنا الشيخ سوف تحركت عجاجة. وتكونت سحابة أبرقت وأرعدت وسرعان

ما انهمرت المياه. فامتلأت القرارة بالمياه. حيث شربنا وملأنا قربنا وسقينا إبلنا واستقرَّينا عليها ثلاثة أيام.

انطلقنا بالقافلة. ونحن نسير حتى شاهد أحدنا مسرباً للنمل يحمل قمحاً. فأنخنا الإبل وتتبعناه فوجدنا مطموراً به حوالي ثلاث مرطات قمح. استخرجناها وصرنا نقليها على النار نقتات بها إلى أن وصلنا إلى النجوع.

ومن المعلوم أن الشيخ سوف من القيادات التي حضرت لمعركة القرضابية ولما تجهز لها المجاهدون انطلق هو وجماعته غرباً حيث حضر حصار بني وليد. ثم معارك غريان وبراكة بن غشير. وبقية المعارك في سنوات 1916 - 1918م ثم معارك 1922 - 1924م.

# الطريق إلى فزان

كنت في قرية تيجي في استضافة أحد وجهائها. وكان المجلس غاصًّا بالحاضرين. والحديث يتشعب ويتناول مختلف مناحي الحياة. حتى وصلنا إلى الصحراء وأهوالها وعطشها ولطف الله بعباده وإغاثتهم في كثير من الأحيان.

وكنت قد سمعت قصة لقافلة كاد أن يهلكها العطش في طريقها إلى فزان. ولكن الله أغاثها بالمطر فشربت ونجت من موت محقق، وما إن بدأت في القصة. حتى قال شيخ يجلس بجانبي يدعى خليفة العرّ. تلك القافلة كان عمك - يقصد نفسه - أحد أفرادها **فقلت له: إذن قصَّ لنا القصة.**

**قال**: كنا نقطن بخيامنا في منطقة الظاهر، وكنا مجموعة من العائلات.

نفد تموينا. وكان قريباً منا شخص من السبعة يدعى مرسيط أشار علينا بالذهاب إلى فزان لجلب التمر. وهم

يستبدلونه بالإبل، والتمر هناك رخيص، وهو يريد أن يذهب إلى هناك بأسرته وهو خبير بالطريق. جهزنا قافلة وكان معي ضو العتري ومجموعة أخرى من أبناء عمومتي.

وكان الخبير بنا الشيخ مرسيط الذي كان يرتحل بأسرته. وكنا نرحل برحيله، ونقيم بإقامته، ونترك مسافة بيننا وبينه نراه بالعين احتراماً للأسرة.

وكنا نحمل الماء حسب إرشاداته وإذ يقول لنا احملوا من الماء ما يكفيكم ثلاثة أيام، وأحياناً أكثر، أو أقلّ. وفي أحد الآبار قال لنا احملوا ما يكفيكم من الماء لمدة ثلاثة أيام. إذ بعدها سنصل إلى الماء.

حملنا الماء. وسرنا الثلاثة أيام ونفد ماؤنا. ولم نرد البئر الذي قال لنا: إننا سنرده.

أنخنا الإبل للمقيل. وكنت أصغر المجموعة فأعطوني قربة وطلبوا مني أن أذهب للشيخ مرسيط أطلب منه الماء لنشرب ونعد طعامنا. ونذكره بأنه قال لنا إن الماء سنرده بعد ثلاثة أيام. وأسأله متى نصل إلى الماء؟.

اقتربت منه. وكان يستظلّ من حرِّ الشمس مع أسرته. وناديته.

جاءني خارجاً من المظلّة. وسألني عما أريد فقلت له: إنني أريد الماء. فماؤنا نفد. وأنت قلت لنا سنصل البئر بعد ثلاثة أيام.

أجابني بتجهُّم: ليس لديَّ ماء. ولن أقتل أولادي من أجلكم. والماء قلت لكم بعد خمسة أيام ستصلون الماء. واذهب إلى جماعتك ولا ترجع إليَّ.

رجعت إلى الجماعة بدون ماء. وكانت القربة يابسة تتدلى في رقبتي.

قالوا لي أين الماء؟ أجبتهم بما قال لي. وطلبت منهم أن يحملوا إبلهم ويرتحلوا. قالوا نحن لا نخبر. أجبتهم بأنني أخبرها أنا. وفي الحقيقة لا أعرفها ولكنني تطوعت هكذا. وعلى أن أسير بهم في الاتجاه حتى نموت عطشاً.

مشيت أمام القافلة قليلاً. وكان الوقت عصراً ثم صحتُ بأعلى صوتي مستغيثاً بالله أن يغيثنا بالماء. وتصايحت المجموعة معي بدون وعي فأرسل الله سحابة صغيرة. ولمع فيها البرق، وأرعدت، وانهمر المطر.

ونحن نسير وعند المغرب وأثناء لمعان البرق رأينا شجرة طلح صغيرة في قرارة وقد لمع الماء تحتها. ولما وصلنا وجدنا الماء قد تجمع في ذلك الغدير. فكبَّرنا لله. وشربنا وملأنا قربنا. وسقينا إبلنا. وبتنا عليها. وفي الصباح واصلنا رحلتنا. ووصلنا واحات الشاطئ، وحملنا التمر، وعدنا إلى أهلنا. وتلك هي رحمة الله.



# قوافل الملح

والشيء بالشيء يذكر. كنا مجموعة تتحدث عن الصحراء وأهوالها وذلك في منطقة (بدر). وكان معي مجموعة من أهالي مالي الشمالية. سكنوا في المنطقة هروباً من بطش حكومتهم في السبعينيات وأوائل الثمانينيات. وكذلك هرباً من الجفاف.

وكان من بين الجالسين كهل من الفلان يعيش مع البرابيش المتخصصين في جلب الملح من ملاحة (تاودني). وهي ملاحة تقع في رأس مثلث خريطة مالي الشمالية.

وهذه الملاحة طولها قرابة المائة كيلو متر لا يوجد بها مياه صالحة للشرب ولا حطب للوقود وعند قطع الملاحة تستمر القافلة خمسة عشر يوماً لا تجد بئراً للمياه وعليها أن تحمِّل إبلها بالماء الكافي.

البعير يحمِّلونه بأربعة ألواح من الملح عند العودة. كما يحمِّلونه بحزمتين من نبات السبط لإطعامه في الطريق

لأن الأرض لا نبات بها وذلك عند قدومه للملاحة.

وتتكون القافلة من عدد كبير من الإبل يصل إلى الألف.

وحتى يسيطروا على القافلة يربطون كل أربعين بعيراً في ذيول بعضها البعض. ويركب شخص على البعير الأمامي. وشخص على البعير الخلفي. حتى إذ انقطعت السلسلة ينتبه لها الراكب في الخلف.

هذا الحديث أخبرنا به ذلك الكهل والذي يسمى (حمدون).

فسألته إن مرت عليه حوادث العطش هذه التي نحكي عنها.

قال: ذات مرة كنت في قافلة الملح هذه ونقصَ علينا الماء في المهمه الذي تقطعه القافلة لمدة خمسة عشر يوماً بدون مياه.

وتقطعت سلسلة الإبل. وهام الجميع كل في وجهه لأن الناس عندما يعطشون يختلف رأيهم. وكل شخص يظن الماء في وجهة يراها.

وسرت ومعي أربعة من الأشخاص كلٌّ على جمله. وأنا معي ثلاثة جمال. أحدها أركبه. وأسوق الجملين أمامي والعطش يشتدُّ بنا.

وبدأت الدنيا تتغير في عيني. ويصيبني الدُّوَار. والرياح الحارّة تَصْهَدُ الوجوه. وتَشَتَّت رفاقي ولم يعد أحد منا يعي بما يحدث. وسقطت من على ظهر الجمل. وكسرت يدي وترقوتي. واستطعت بصعوبة أن أنيخ جملي. وقمت أتعثر. وأنخت الجمل الثاني، حيث عقلته من أرجله الأربعة. وربطت خزامته في ذيله. وأخذت القربة. ووضعتها بين ركبتيه ورقبته ونحرته. وجمعت الدم في القربة. كل هذا أعمله بيد واحدة.

ثم فتحت بالسكين جانب الجمل. حيث فتحت فتحة حول ضلعيه الآخرين من جهة البطن.

وأدخلت ذراعي السليمة وراء الأضلاع وجذبتها إلى الخارج حيث كسرتها. وتركت فتحة استطعت أن أخرج منها الكرش. وأن أعصره لأستخلص منه قليلاً من الماء.

ثم أدخلت يدي بالسكين داخل جوف الجمل وبدأت أمزق الأحشاء حتى اختلط فرثها بالدم بالبقايا. ودخلت في جوف الجمل ونمت حتى مالت الشمس للغروب.

خرجت نشطاً بعد أن شربت من ذلك الدم غير أن جسمي ما إن لفحته الريح حتى يبس وتشقق وبدأ الدم ينزّ من الجروح.

وأصبح شعر رأسي كالخوذة إذ يبست عليه الدماء والفرث.

ركبت الجمل وأنا أفضل حالاً ولو أن ألم الجراح وتشقق وجهي وشفاهي تؤلمني. وسرت الليل بكامله تاركاً العنان للجمل الذي بدأ يعرف المنطقة. وكنت كلما شعرت بالدُّوَار واصفرَّت الدنيا في عينيَّ أشرب جرعة من تلك القربة الصغيرة المملوءة بالدم وماء الفرث.

عند الصباح عرفت الأرض فلقد وصلت إلى ديار لنا قديماً. وعرفت طريق البئر والذي كان قليل الغور (حسيى).

وصلته فوجدته آسناً ومملوءاً بالقشّ والخنفس.

قشطت تلك الأوساخ جانباً وشربت وغسلت جسمي ورأسي. وملأتُ القُرَب. وعدت إلى أصحابي الذين رافقوني في التيه.

مشيت يومين ولم أجد أحداً منهم. وفي اليوم الثالث وجدت أحدهم. وقد حفر حفرة تحت شجرة سبط. يمضغ جذورها. وقد تغير لونه ولون عينيه. وهو مغمًى عليه.

سقيته وبقيت بجانبه حتى أفاق. ورافقته إلى البئر.

أما بقية الجماعة فلقد ابتلعتها الصحراء والرمال والعطش.

**وهذه القصة يحدث مثلها مئات القصص في رحلات الملح هذه.**

## صدر للمؤلف

1 - بين نجوع البادية
(طبعتان - شعر شعبي).

2 - عشيات وادي غدو
(طبعتان - شعر شعبي).

3 - ريم على الغدير (شعر شعبي).

4 - من ليالي السمر (شعر شعبي).

5 - بين الجديد وقارة (شعر شعبي).

6 - الفروسية في ليبيا (دراسة).

7 - صدى الجهاد الليبي في الأدب الشعبي (دراسة).

8 - الأدب الشعبي في ليبيا.

9 - سوف المحمودي حياته.... وشعره.

10 - من ظفار إلى الساقية الحمراء (رحلات).

11 - مشاهدات صحفي (رحلات).

12 - القرضابية (تاريخ).

13 - خليفة بن عسكر الثورة والاستسلام (تاريخ - طبعتان).

14 - معارك الدفاع عن الجبل الغربي (تاريخ - طبعتان).

15 - فجر الذكريات (شعر).

16 - (7) قصائد ثورية (شعر).

17 - وداعاً.... للرحيل (شعر).

18 - حفيف الطلح (شعر).

19 - إلى راعية (شعر).

20 - خمائل الأقحوان (شعر).

21 - لوافح الصحراء (شعر).

22 - التوارق عرب الصحراء الكبرى (أربع طبعات).

23 - جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى (طبعتان).

24 - صحراء العرب الكبرى (طبعتان).

25 - الأسراب الجانحة (قصة ثورة الساقية الحمراء).

26 - أعلام من الصحراء.

27 - الإبل وحضارة الصحراء.

28 - سمر البدو في الصحراء.

29 - من القصص الشعبية في الصحراء.

30 - الأمثال الشعبية في الصحراء.
31 - حرب المغاوير في الصحراء.
32 - الصحراء تشتعل (تاريخ).
33 - حكومة العراسة.
34 - من نقائض الشعراء العرب في الصحراء.
35 - نماذج من الشعر العربي في الصحراء.
36 - مذكرات المجاهد عون بن سوف.
37 - أمثال من الجفارة.
38 - يتيم وادي تيهاوت (قصة واقعية).
39 - من أدب الرعاة.
40 - من قيادات الجهاد الإفريقي.... محمد كاوسن (تاريخ).
41 - ديوان الشاعر ضو العساس (شعر شعبي).
42 - أزواد أو صحراء التينري.
43 - الشعر الحساني في الصحراء (شعر شعبي).
44 - التراث الشعبي العربي الليبي.
45 - بحة الناي (ديوان شعر).
46 - النار في الصحراء.
47 - رباعيات صحراوية (شعر شعبي).
48 - الموسيقى والغناء في الصحراء.
49 - القبائل العربية بين ليبيا والسعودية.

50 - من قيادات الجهاد الليبي....
الشيخ علي كله والشيخ المبروك الغدي (تاريخ).
51 - علي خليفة الزائدي قائد ورسالة.
52 - ليبيون في الجزيرة العربية.
53 - صبا نجد (شعر شعبي).
54 - يوم.... لا ينسى (قصة).
55 - نزوى.... في الشعر الليبي.
56 - الحوار الشعري. بين عُمان، وليبيا، والجزائر.
57 - في ظلال السدر.
58 - خي بابا شياخ.... وآثاره الأدبية.
59 - أحاديث عابرة.
60 - رباعيات حائرة.
61 - الطيور المهاجرة.
62 - مراحيل العطش.
63 - الإيطاليون في الجنوب الليبي
(أرتال مياني 1913 - 1915) - (مترجم - تحقيق).

## تحت الطبع

1 - **من شعراء الغرب الليبي** (دراسة شعر شعبي).

2 - **ديوان الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحامدي**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

3 - **ديوان الشاعر بلقاسم بن محمد**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

4 - **ديوان الشاعر محمد كريميد**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

5 - **ديوان الشاعر أحمد فردة**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

6 - **ديوان الشاعر أحمد بن دلة**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

7 - **ديوان الشاعر خليفة الكردي**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

8 - **ديوان الشاعر عظيم العنابي**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

9 - **ديوان الشاعر محمد درمان**
(جمع وتحقيق - شعر شعبي).

10 - ديوان الشاعر محمد بو سيف
(تحقيق - شعر شعبي).

11 - فرسان الغروب.

12 - على مشارف الستين.

13 - ديوان الشاعر منصور العلاقي
(تحقيق - شعر شعبي).

# فهرس المحتويات